غارودي



يُقَاضي
الصهيونية الاسرائيلية

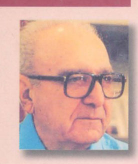
بإذن خاص من المؤلف للطبعة العربية

عويدات
بيروت

روجيه غارودي

يُقَاضي

الصهيونية الاسرائيلية



إنني أفوّض منشورات عويدات
ترجمة كتابي **محاكمة الصهيونية الاسرائيلية**،
وطبعه، وإن بدون حقٍ حصريٍ لها،
لأن كتابي **الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية** تناوله 29
مترجماً في مختلف البلدانِ (من
اليابان إلى الولايات المتحدة)،
بدون أيِ إذنٍ مُسبَقٍ مني.
مع رجاء أن ترسلوا إليَّ، عند
صدور الكتاب (بالعربية)، بضع
نسَخٍ ثبوتية.

بكل محبة

روجيه غارودي

عويدات

روجيه غارودي

يقاضي الصّهيونية الإسرائيلية

ROGER GARAUDY

J'autorise M Ouezdat à traduire et publier mon livre : "*Le procès du sionisme israélien*" sans pouvoir en assurer l'exclusivité, car, par exemple pour les "Mythes fondateurs de la politique israélienne", 29 traductions ont paru dans divers pays (du Japon aux Etats-Unis) sans même m'avoir demandé une autorisation préalable.

Ayez la bonté, lors de la parution, de m'envoyer quelques exemplaires justificatifs.

Très cordialement

DEC - 21 - 98

R. Garaudy

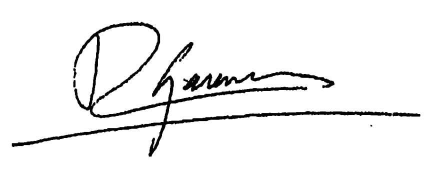
روجيه غارودي

إنني أفوِّض منشورات عويدات ترجمة كتابي **محاكمة الصهيونية الاسرائيلية**، وطبعه، وإن بدون حقّ حصريّ لها، لأن كتابي **الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية** تناوله 29 مترجماً في مختلف البلدان (من اليابان الى الولايات المتحدة)، بدون أيٍّ إذنٍ مسْبَقٍ مني.

مع رجاء أن ترسلوا إليَّ، عند صدور الكتاب [بالعربية]، بضع نسَخٍ ثبوتية.

بكل محبة

روجيه غارودي



21 ديسمبر 1998

عـويـدات لـلـنـشـر والـطـبـاعـة
بـيـروت - لـبـنـان

الطبعة الأولى 1999

روجيه غارودي

يُقاضي
الصّهيونية الإسرائيلية

تَرجَمة
رانيا بوناصيف و بيار ريشا

مُراجَعَة وتحرير
هنري زغيب

عويدات للنشر والطباعة
بيروت ـ لبنان

المقدمة

ألَقْ فرنسا يُبْهِتُهُ هذا النوع من المحاكمات

كتابيَ هذا، يتناول السياسةَ الاسرائيليةَ وأُسُسَهَا الإيديولوجية.

فأنا مُدانٌ بتُهمَتَيْن:

1- قدحُ أفرادٍ وجماعاتٍ بسبب انتمائهم الإتني أو الديني. لكنني أتحدّى أيًا كان أن يجد في كتابي سطرًا واحدًا استخدمت فيه كلمة "يهودي" بمعنى تحقيري. أنا أنتقد فقط من استخدموا الدين (أفرادًا أم أحزابًا) لتبرير سياستهم. فأنا إن دِنْتُ سياسة حزب طالبان، لا أكون ذممتُ الاسلام، بل بالعكس دافعتُ عنه ضدّ من لا يشرّفونه.

في هذا المنحى، عندما أنتقد المتشددين الاسرائيليين أو مناصريهم (بسبب تسخيرهم الديانةَ اليهوديةَ في خدمة سياسةِ حربٍ) تكون معركتي ضدهم ضمن معركتي ضد مناهضة السامية التي يَبنون هم سياستهم على إطلاقها، وأنا أعتبرها جريمةً يعاقب عليها القانون.

2- التقليل من فداحة جرائم هتلر، في حين أعدائي هم الذين يقلّلون من فظاعتها، عبر:

أ- حصرهِم هذه الجرائمَ بتلك التي ارتكبها هتلر ضد اليهود وحدهم، في حين كلفت حرب هتلر 50 مليون قتيل.

ب- تركيزِهم حصريًا على واحدٍ فقط دون سواه من أساليبه في القتل، وتَستّرهم على أشكال أخرى عديدة من جرائمه.

- كيف جرت جلسات هذه المحاكمة العبثية؟

سألني يهودي منوحين (Yehudi Menuhin) عندما قرأ نص الحكم الذي أراني الآن أستأنفه.

والموسيقيُّ الكبير لم يكن الوحيدَ الذي رفضَ عبثية الحُكْم. فرئيس جمهورية سويسرا السابق (المؤرخ أصلاً) السيد شوفالاز (Chevallaz) وصف هذه الدعوى بالـ"ماكارتيزمية الجديدة". و"مطاردة الساحرات". وتحدث عن تحقيق قضائي.

وفي جريدة "ستامبا" (عدد 1998/3/28) اعترض على الحكم عشرون أستاذًا من أكبر جامعات إيطاليا (روما، تورينو، نابولي، ميلانو، بيزا، فلورنسا) في مقال عنوانه "هذا الكتاب ليس عنصريًا"، جاء فيه: "محاكمة روجيه غارودي في فرنسا بسبب كتابه **الأساطير المؤسّسة للسياسة الاسرائيلية** تشكل فصلاً خطيرًا من القمع الثقافي. ففي حيثيات الحكم أُدين الفيلسوف الفرنسي بسبب معارضته جرائمَ ضد الانسانية، وهو أمرٌ عبثيٌّ فعلاً ويثير تساؤلاً كبيرًا. فهذا الكاتب بعيدٌ عن كل شكل من أشكال العنصرية، وخطأٌ فادحٌ (يكشف عن خطر الجنوح الى التخلف وبَرْبَرَةِ المناخ الثقافي في أوروبا) أن يحكم عليه لأنه - مستنِدًا الى توثيق واسع مستمد غالبًا من كتاب يهود - ناقش وأعاد إبرازَ الآلية المتوحشة التي سبّبَتْ ما اعتبره **استشهاد اليهود**، والجرائمَ الشنيعة التي ارتكبها هتلر ضد اليهود.

إننا نحبذ مناقشة حرة لنظريات غارودي - وهذا لا يعني حتمًا أننا نشاركه فيها - ونحتجُّ على حكم حرية الرأي هذا وعلى القانون الذي اوحى به: قانون غيسو (Gayssot).

كما نعبر عن خوفنا من الأخطار التي تهدد الثقافة والنشر لا في فرنسا وحسب بل في كل أوروبا، إذا انتشرت في المحاكم موجة الحلول مكانَ ما يمكن ان يعالَج بالبحث العلمي".

أسعدني هذا الاستئناف الذي قدمته وأعدائي في آن واحد، لأن الأحداث، مع الأسف، أثبتت نظريتي حول الاخطار الناجمة عن شرح متشدد للكتاب وللتاريخ، وعن تحويل الأسطورة تاريخًا واقعاً.

وتوقعاتي عن دَور إسرائيل، أن تكون مُفَجِّرَ حربٍ عالمية ثالثة، تحققت بالوقائع في سياسة نتنياهو. وترجمة كتابي في 29 بلدًا دلّت أن الملايين يعون هذا الخطر. وفتحُ المحفوظات الإسرائيلية أتاح للمؤرخين الإسرائيليين تدميرَ تلك الأساطير، والانتقالَ، حتى في إسرائيل نفسها، من الميتولوجيا الى التاريخ. واعترض مؤرخون من جميع الأمم على محاولة خنق أفكاري التي تناولت مساوئ هذه الميتولوجيا بتطبيقها على أنها واقعٌ، واعتمادها أسساً للسياسة.

ما بقي من المحاكمة الأولى، المستَمَدَّة من قانون غايسو، أنْ بَهُتَ أَلَقُ فرنسا موطناً لحقوق الانسان وحرية التعبير.

وما أقوم به (في صفحات هذا الكتاب) من استئنافٍ للحُكْم، أتمّناه يرمِّم ما لحق بصورة فرنسا.

الفصل الأول

الصهيونية ضد اليهودية

يؤسفني أنْ لم أستطِع إلاّ إعطاءَ صورة شاحبة عمّن اتهموني، وهُم مسكونون بفكرة ثابتة: مطابقة الصهيونية واليهودية معا، ووصف كلٍّ من ينتقد سياسة إسرائيل أو مفكّريها بـ"معادي السامية".

فالشاهد الوحيد الذي استدعوه ليشهد -الأستاذ الجامعي(!) تارنيرو- لم يتردَّد مثلاً، وبكل وقاحة، في تحريف استشهاد من كتابي ينتهي (على حدّ قوله) بعبارة: "أن يكون الشخص اليوم يهوديًا، يعني أن يكون مرتبطًا بإسرائيل" مُخفيًا على الحضور أن هذه العبارة ليست لي بل للكاتب الإسرائيلي شلومو آفينيري، أوردتها *بحرفٍ مائل* وذكرتُ مصدرها: "صُنع الصهيونية الحديثة" (1981- ص197).

رئيس "العصبة الدولية لمناهضة العنصرية والعداء للسامية" (LICRA) بيار آيْدِنباوم (Aïdenbaum) حدد (في بيانه يوم 1996/4/24) نهجه بقوله: "إن بعضهم، بحجة العداء للصهيونية، ما عادوا يخفون عداءهم الحقيقي للسامية. وهذا أمر قاضته المحاكم في بلادنا".

نعم، قاضته المحاكم وتحديدًا كي تُدينَ الـ"ليكرا" في سعْيها الى الإقناع بأن الصهيونية (وهي سياسة) تتطابق مع اليهودية (وهي ديانة).

وأُذكّر فقط بالحكم الصادر في 1983/3/24 عن المحكمة البدائية (أو محكمة الدرجة الأولى) في باريس (المصادق عليه استئنافًا وتمييزًا) في الدعوى التي أقامتها الـ"ليكرا" ضدي وضدّ الأب لولون (Lelong)، والقس ماتيو (Matthiot)، ومدير "لو موند"جاك فوفيه (Jacques Fauvet)، وورد في نص الحُكْم: "لما كان الأمر يتعلق بنقدٍ مشروعٍ لسياسة دولةٍ، وللإيديولوجيا التي تلهمها، وليس باستفزاز عنصري، ترَدُّ طلبات الـ"ليكرا" ويُحكَم عليها بدفع المصاريف".

الالتباس الثاني ما جاء في بيان آيْدِنْباوم نفسه: "روجيه غارودي مثل روبير فوريسون (Faurisson)، جعل من السلبية كتابه المقدس الجديد".

وهو تشبيهٌ غريب في حين كتب فوريسون نفسُهُ مقالةً انتقدني فيها بعنف. وهو تشبيه كاذب، لأن مشكلة فوريسون ليست مشكلتي: فكتابي، كما يشير عنوانه، موجّه ضد السياسة الاسرائيلية التي، كما أثبتت الاحداث، قد تفجر حربًا عالمية؛ والتاريخ في كتابي ليس موضوعًا أساسيًا، ولم أذكره إلاّ عند استشهادي بتحاليل الاختصاصيين وخصوصًا الإسرائيليين منهم أو الصهاينة - مثل رايتلينغر (Reitlinger)، بولياكوف (Poliakov)، هيللبيرغ (Hillberg)، بيداريدا (Bedarrida) - على أنهم اليوم المؤرخون الجدد لإسرائيل، حتى أن أحدهم، بني موريس (Benny Morris) قال: "ليس المقصود تاريخًا جديدًا، إنما التاريخ وحسب، طالما لم يكن عندنا في الماضي إلاّ الأساطير".

عام 1997 أصدر البروفسور زيف شترنهل (Zeev Sternhell)، من جامعة القدس العبرية، كتاب "الأساطير المؤسِّسة للقومية الاسرائيلية" عن "منشورات جامعة برنستون" الرصينة (صدر عنه مقال في "لوموند ديبلوماتيك" عدد أيار/مايو 1998).

وعام 1998 صدر عن منشورات غاليمار كتاب "تاريخ إسرائيل الجديد" لإيلان غرايلشامر (Ilan Greilshammer)، أستاذ العلوم السياسية في جامعة بار إيلان، استخدم فيه كلمة "أسطورة" مئة مرة ومرة. ولستُ أدعي أنني رائد، ولا أعطي المؤرخين دروسًا، وسنعود الى ما يتعلق بالأسطورة وما أُتّهَم به من قدْح، لكني الآن أسجِّل:

1- أن محاكمتي ليست محاكمةَ فوريسون ولا محاكمةَ أيِّ مؤرخ ناقد آخر.

2- أنهم لا يستطيعون رفع دعوى مماثلة عليَّ حتى في إسرائيل حيث بدأ باحثون بتفكيك وفضح الأساطير (حسب مقال بعنوان "من الميتولوجيا الى التاريخ" صدر في "لوموند" يوم 1998/4/4). وامتدح زيف شترنهل تأثير ذلك التفكيك إيجاباً على السلام، وأضاف أن "إعادة طرح أساطيرنا المؤسسة لم تكن يومًا منتشرة على هذا النحو".

الالتباس الثالث في بيان آيدنباوم قولُه: "قلتم، يا أيها الأب بيار، إنكم لم تقرأوا الكتاب. وأنا واثقٌ أنْ لو قرأتموه سيثير فيكم استهجاناً وسخطاً ما أثار فينا".

وحقيقة الأمر أن الأب بيار، في حوارٍ مع "لوموند"، كتب هذا النص الذي أرسل إليَّ في 1996/7/28 نسخة منها نشرتها، بعد موافقته، في كتابي "شهودي". وفي النص: "... في سكون الدير، قرأتُ الكتاب المتهم وسجّلتُ بعض التعليقات. ولما لم أجد ما يُلام عليه، ولعِلمي أنني قليل الخبرة في الموضوع، سألتُ رئيسَي اثنتين من أكبر الجامعات الكاثوليكية في اوروبا، أن يعطيا الكتاب، مترجمًا بلغتهما، الى ثلاثة أساتذة اختصاصيين بالتاريخ واللاهوت وعلوم الكتاب المقدس، ليعطوني آراءهم التي تهمني أكثر من آراء جماعة الـ"ليكرا". وعندما بدأ التهجم العشوائي على عمل غارودي وشخصه، لم أكن بعدُ قرأتُ الكتاب، فأعلنت، في رسالتي (15 نيسان/أبريل) ثقتي بشخص غارودي وقدراته ومناقبيته في كل ما يفعله.

الـ"ليكرا" لاحقته قضائيًا؟ أقول إن هذا "من حسن حظه". لكني أُشفِق على القضاة المضطرين أن يحكموا استنادًا الى قانون غايسو الذي قالت عنه سيمونّ فيل (Simone Veil) إنه "قانون يضعف الحقيقة التاريخية عبر محاولتِهِ اعطاءَها قيمةً قانونية"، والذي كان صوّت ضده شيراك، جوبيه، سوغان (Seguin)، دونيو (Deniau)، جان ديغول، ريمون بار (Barre)، بالادور، ووزير العدل الحالي توبون (Toubon) ووزير الداخلية دوبريه (Debré) واكثر من 250 نائبًا.

منذ تموز/يوليو 1972، تتمتع الـ"ليكرا" بامتياز يعطيها سلطة تحديد من هو عنصري ومن هو غير عنصري ("الجريدة الرسمية"، مجلس النواب، الجلسة الثانية في 1990/5/2، مداخلات الوزير جاك توبون).

إن الحركة الصهيونية (مع رؤسائها النافذين في الولايات المتحدة، ذوي التأثير الكبير في كل انتخابات أميركية) تريد امتلاك كل الارض التي حددها الكتاب المقدس: "من الفرات الى النيل أرضُكِ يا إسرائيل".

وداخل كل مراكز القرار الستراتيجية للسياسات الخاصة بهذه الدول في فرنسا كما في الخارج، يتغلغل عملاء سريّون للحركة الصهيونية، وتبدو عقيدتهم أكثر فأكثر عنصرية وإمبريالية تجاه الفلسطينيين.

والاساليب كذلك تصبح أكثر ظلماً واستبداداً ووحشية، منذ مقتل برنادوت ورابين، ومنذ مجازر دير ياسين، صبرا وشاتيلا، الخليل، قانا...

وحتى الإرشاد الروحي في الجيش الاسرائيلي هو كلياً في عهدة حاخامات صهاينة لا ينفكون يرددون للجنود أن الهدف هو السيطرة على الأمبراطورية التي حددها سفر التكوين، ويعظونهم عن استمرار الاقتداء بيشوع بن نون.

وطبعًا في مشروع مجنون كهذا، لا مكان لدولة اسرائيل، ولا خاصةً لأي ملجأ فلسطيني.

لكنّ عددًا كبيرًا من المواطنين الاسرائيليين يعارضون مشاريعَ مماثلة لأنهم يريدون السلام.

ولا نُغفِلَنَّ أن كثيرين، من هرتزل الى أركان كبار في دولة إسرائيل اليوم، يقولون إنهم غير مؤمنين، لكنهم يتلطّون، بتّهكم، في سفر التكوين للحفاظ على مواقعهم.

أين آمال السلام في كل ذلك؟ وهل ستنجو اسرائيل من حرب أهلية؟ لن ينسى أحدٌ أن المحكمة ردّت دعوى الـ"ليكرا" ضد فوفيه وغارودي وأحد الكهنة، مع تغريمها بالمصاريف. ومواد قانون غايسو حديثة العهد وعبثية، وتضَع القضاة في موقف مستحيل، كما رأيُ الوزير توبون (الجريدة الرسمية، مجلس النواب، الجلسة الثالثة في 1991/6/21) عندما أعلن: "هذا القانون غير قابل للتطبيق"، و"وحده منع المحاكمة يليق بديمقراطيتنا".

هذا هو، إذاً، يا سيد آيدنباوم، رأي الأب بيار بعدما قرأ الكتاب.

من ناحية أخرى، كتب إليّ يهودي منوحين (1997/11/27) في رسالةٍ تزيد عن عشر صفحات، نصاً أقتطف منه الآتي:

"عزيزي غارودي،

قدّرتُ رسالتك الممتازة والمتفهّمة، وأنا أُشاطرك شعورك بالحرمان والخيبة لمجرى الاحداث التي أخشى أن تقودنا الى نزاع مستقبلي" (وأرفَقَ رسالتَهُ بمقال عن القدس نشره في "هآرتز" وذكر فيه، نقلاً عن كتاب والده الحاخامُ موشي منوحين، بانحطاط اليهودية الذي يدين الصهيونية بقسوة، ويتوقع قيام سياسة الحرب). وقال: "كان حتماً عند أبي شعور داخليٌ راسخ، وهو تنبأ بالتطورات التي نشهدها اليوم برُعبٍ وخشية".

وأضاف: *"أيسعني القول إنك والذي متقمّصاً في إيديولوجيا إسلامية؟ لا أعلم ما هي الـ"ليكرا"، فَأبْقِني على اطّلاع، وأنا مستعِدٌّ كلياً أن أعطي رأيي في عملك الممتاز، وتجربتي الشخصية تؤكد نزاهتك".*

هذا ما جاء في الرسالة.

وأضيف بدوري أن برقية من وكالة "أسوشيتد برس" (في1996/9/10) أوردت في زاوية الوفيات أن الحاخام إلمر برغر (Elmer Berger)، الرئيس السابق لـ "العصبة من أجل اليهودية في الولايات المتحدة الاميركية" ومؤسس مجلة "بديل الصهيونية" كان مصمِّماً أن يكتب مقدمة الطبعة الأميركية من كتابي "الأساطير المؤسِّسة للسياسة الاسرائيلية".

ما الذي كانت عليه آراء أهم الشخصيات اليهودية في العالم: آينشتاين، مارتن بوبر (Martin Buber)، يهودا مانييس (Judah Magnes) مؤسس الجامعة العبرية في القدس، البروفسور لايبوفيتز (Leibouvitz) المشرف على "الموسوعة اليهودية"، وكبير مؤرخي العداء للسامية: برنار لازار (Bernard Lazare) وآنسا آرندت (Hannah Arendt).

آينشتاين كان منذ 1938 حكم على هذا التوجه: "أرى أن الأكثرَ منطقيةً من خلق دولة يهودية: التوصلُ الى اتفاق مع العرب، أساسه حياة مشتركة مسالمة... وأعرف أن جوهرَ الطبيعة اليهودية يتنافى وفكرة دولةٍ يهوديةٍ ذاتِ حدودٍ وجيشٍ ومشروع سلطةٍ زمنيةٍ، مهما كان المشروع متواضعًا. أخشى الأضرارَ الداخلية التي ستتعرض لها اليهودية بحجة نمو قومية ملزِمة في صفوفنا...".

وكان مارتن بوبر (في كتابه "إسرائيل والعالم" - نيويورك 1948) قال: "ما شعرتُ به قبل 60 عامًا، عندما دخلتُ في الحركة الصهيونية، هو تماماً ما أشعر به اليوم. كنتُ آملُ، فترتَئِذٍ، ألاّ تتبع هذه القومية طريق الآخرين، فتبدأ بأمل كبير ثم تروح تتدهور حتى تصبح أنانية مقدسة، وتتجرأ، على طريقة موسوليني، ان تنصّب نفسها "أنا مقدسة"، كأن الأنانية الجماعية تستطيع أن تكون أكثر قدسية من الانانية الفردية. عندما عدنا الى فلسطين، طُرح علينا سؤالٌ قاطع: بأي صفة ترغبون في المجيء الى هنا: صديق، أخ، فرد من رابطة شعوب الشرق الادنى، أو ممثل للاستعمار والامبريالية؟"

يهودا ماغنيس، رئيساً للجامعة العبرية في القدس (منذ 1926) ألقى في بداية العام الدراسي 1946 كلمة افتتاح جاء فيها: "ينطق الصوت اليهودي الجديد بلغة البنادق. هذه هي توراة أرض أسرائيل الجديدة. لقد أخضع العالم لجنون القوة الجسدية. والسماء تحمينا بعملنا على إخضاع اليهودية الآن وشعب اسرائيل الى هذا الجنون. فنحن لا نستطيع الاتفاق مع مجتمع اصبحت فيه القومية عقيدة مفروضة. وفي ضوء تصورنا العام لتاريخ المصير اليهودي، فيما نحن منشغلون بوضع اليهود وأمنهم في أنحاء العالم الباقية، لا نستطيع الالتزام بالتوجه السياسي الذي يسيطر على البرنامج الصهيوني الحالي، ولا ندعمه. إن القومية اليهودية تميل الى خلق الارتباك عند رفاقنا في مواقعهم ومراكزهم في المجتمع، وتحوّل اهتمامهم بعيدًا عن دورهم التاريخي: العيش ضمن جماعات دينية حيثما كانوا".

تأخرتُ كثيراً حتى وعيتُ المعارضة المطلقة بين الصهيونية واليهودية، والتناقض الأساسي للصهيونية. فهذه، عقيدة سياسية ولدت مع تيودور هرتزل (أحد قوميي القرن التاسع عشر الاوروبيين) وجاهر بها ملحدون (هرتزل نفسه، بن غوريون، غولدا مائير، وجميع الآباء مؤسسي الصهيونية). وهي تحتاج لتبرير وجودها الأساسي الى استعادة مسلّمات توراتية (أو ما يقولون انها كذلك) عن "أرض موعودة". وما كان للصهيونية أن تتطوّر الاّ بدعم عناصر الحاخامية الأكثر تطرّفاً وتشدداً للإقناع بأن أرضًا محتلة يمكن أن تكون أرضًا موعودة.

إنهم يطالبون بملكيةِ أرضٍ أعطاهم إياها إلهٌ لا يؤمنون به. وأنا لم أفهم هذا التناقض إلا باختبار نتائجه الإجرامية.

من قراءتي التوراة، دخلتُ عام 1933 على العائلة الابراهيمية الكبيرة الشمولية و لم أتركها منذئذٍ.

تعلمتُ من تضحية ابراهيم أن وراء مناقبياتنا الصغيرة ومنطقنا الضئيل قيماً مطلقة ربانية أبعد منها.

وتعلمتُ من نصوص سفر الخروج، ما سُمِّيَ لاحقًا لاهوت التحرر إزاء كل الضغوط والاستبدادات.

وتعلمتُ من سفر يشوع أن انسانًا يسكنه الرب لا يُقهر، بل يكون (بحسب الامثال الواردة في نص الكتاب المقدس) قادراً على إيقاف الشمس أو إبادة الشر من بين الناس، مع أن هذا قيل بلغة تلك الحقبة البربرية، فالإله الساميُّ لا يستطيع التحدث الى الإنسان إلا بغموض، والانسان لا يستطيع التحدث عن ا لله إلا بمجازية.

باستمدادنا قوتَنا من هذا الايمان، كنا ليلاً في المعتقل حيث كنت ومؤسس الـ"ليكا" (الـ"ليكرا" في ما بعد) برنار لوكاش (Bernard Lecache)، نعطي دروساً سرية عن أنبياء إسرائيل. وما إلاّ لاحقاً حتى تنبّهتُ الى التحويل الصهيوني للأسطورة العظيمة الى تاريخٍ مزيفٍ مستخدَمٍ لتبرير سياسة قومية عنصرية وتوسّع استعماري.

هكذا، مثلاً، وعد إبراهيم الرائع بتحالف الرب والإنسان "مع كلٍ عائلات الارض" (كما يقول الكتاب المقدس) أصبح وعداً بأرضٍ، وفقـا للطقس العشائري لكل آلهة كنعان.

وأسطورة سفر النزوح العظيمـة، النمـوذج الكونـي لكـل أنـواع التحرير، أصبحت القدرةَ المعجزة لرب الجيوش ورب الثأر في الدعوة الى قتل السكان الاصليين.

عام 1974، وفي صحيفة "يديعـوت أحرنـوت"، استخدم منـاحين بـاراش (Menahin Barash) نصـوص الكتـاب المقـدس لتحديـد الموقـف الاسرائيلي من الفلسـطينيين: "هـذا الـداء الـذي كـان نبَّـه اليـه الكتـاب المقدسِ. من هنا، ولامتلاكنا الارضَ التي وعد الرب بهـا ابراهيـم، علينـا اتباع مَثل يشوع في غزو أرض اسرائيل والمكوث فيها كما يأمر الكتاب المقدس. ولا مكان، على هذه الارض، لشعوب غير شعب إسرائيل. ممـا يعني أنَّ علينا إبعادَ كلٍّ من يعيش عليهـا. إنهـا حـرب مقدسـة فرضهـا الكتاب المقدس".

عندما أتابع في البرنامج الاسرائيلي على شاشة التلفزيون الفرنسـي صبـاح الاحـد، محاضرة عـن الصفـات الاخلاقيـة والروحيــة ليشـوع، أستخلص مضطرًا ان تحويـر الأمثـال الى نـص خـاص بالكتـاب المقـدس يؤدي الى الجريمة، وألفِتُ أولئك المتعصبين الى مـا قالـه لهـم جـان جـاك روسو في كتابه "إميل": "إلهكـم ليـس إلهَنـا. فمـن يبـدأ باختيـار شـعبٍ واحدٍ للقضاء على الآخرين، ليس أبا البشر أجمعين".

هكـذا الصهيونيـة دخلـت في الحـق المشـترك لكـل القوميـات، باستخدامها الديـن لتـبرير السياسـة، كمـا مقولـة "الفرنسـيون يكملـون صنيعـة الـرب" (سـادت منـذ الحـروب الصليبيـة حتـى الغــزوات الاستعمارية)، ومقولة "الربّ معنـا نحـن" (سـادت بـين جنـود بسـمارك وهتلر لتبرير الانتصار بقوَّة الحديد والنار)، ومقولة "لدينا رسالة حضـارة مقدسة" (استخدمها منشئو التمييز العنصري). وقياساً، كـان مسـتعمرو أميركا المتزمتون يستشهدون دائماً بيشـوع وبـالحرب "المقدسـة" لإبـادة

شعب الفلسطو والأماليكيين (بدْوٌ من جنوبي النقب في مصر يتزعمهم آماليك حفيد يسّىَ) أثنَاء المطاردة التي شنها اليهود عليهم للاستيلاء على أرضهم (توماس نلسن، مقال "متزمتو ماساشوستس"، بمجلة "اليهودية"- 1967- المجلد 16، العدد 2).

القومية الصهيونية الإسرائيلية لا تشُذُّ عن هذه القاعدة، انطلاقاً من رواية طريفة يعتمدها موجهوها الملحدون: يدّعون أن هذه الارض لهم، أعطاهم إياها إله لا يؤمنون به.

هذا التناقض الواضح شرحه ناتان واينستوك في كتابه: "الصهيونية في مواجهة إسرائيل" (1969). ومما قال: "إذا انتصرت الظلاميَّةُ الحاخامية في إسرائيل، فلأن المقولة الصهيونية لا تجد تبريرها الا بالرجوع الى الديانة الفسيفسائية. ومتى أُلغيتم مفاهيم "الشعب المختار" و"الارض الموعودة" ينهار الكيان الصهيوني. لذا تستمد الأحزاب الدينية قوّتها، بشكل متناقض، من تواطؤ الصهيونيين اللاأدريين (القائلين بإنكار قيمة العقل وقدرته على المعرفة). والتماسك الداخلي للهيكلية الصهيونية في إسرائيل هو الذي فرض على موجهيها تعزيز سلطة رجال الدين. وإدراجُ التعليم الديني إلزاميًا في المناهج الدراسية، لم يكن بضغطٍ من الأحزاب الطائفية، بل من حزب "ماباي" (Mapai) الاجتماعي الديمقراطي، وبتحريض من بن غوريون نفسه".

1) مشروع هرتزل الاستعماري

تيودور هرتزل، الأبُ المؤسِّسُ للصهيونية، خيرُ مثالٍ على انحطاط الأسطورة الى تاريخ مزيف في خدمة القومية.

وهو لا يخفي إلحاده. ففي مذكراته أنه في1895/11/23 كتب: "قلت لحاخام لندن الكبير، كما قلت لزادوك كاهن Zadoc Kahn حاخام باريس الكبير، إنني لا أخضع لأيِّ دافعٍ ديني في مشروعي".

وفي يومية 1895/11/26 كتب: "سألني آشر مايرز Asher Myers (من جريدة "جُويش كرونيكل" Jewish Chronicl في لندن): "ما علاقتك بالكتاب المقدس"؟ أجبته: "أنا مفكر حرّ".

إذاً، مشروعه استعماري بحت. وهو كتب الى سيسيل رودز Cecil Rhodes في كانون الثاني/يناير 1912: "أما لماذا أتوجه إليكم، فلأنها قضية تَعلّق بالاستعمار. أطلب اليكم منح المشروع الصهيوني ثقل سلطتكم".

ويقوم هذا المشروع في ذهنه، على شبيهِ ما فعل سيسيل رودز في بداياته: "شركة ذات شرعة" تحميها قوة استعمارية كبيرة مثل إنكلترا، أو صاحبة طموح استعماري مثل ألمانيا غليوم الثاني. ولا يهم أين تقوم: في أوغندا، الموزامبيك، الأرجنتين، قبرص أو ليبيا.

وحين لَفَتَهُ أصدقاء له الى أن فلسطين تشكل صيغةَ أمر أفعلَ للاستنفار، تبنى اقتراحهم (وهو الدبلوماسي الواقعي) باستخدام ما يسمّيه **الأسطورة النافذة**، أسطورة العودة، ولو انها بالنسبة اليه مجرد أسطورة، إنما ذاتُ قوة تساعد في التعبئة بشحن نفوسِ يهودٍ أتقياء.

فليس لفلسطين عنده معنى ديني كبير، بدليل ما جاء في مذكراته: "أستطيع أنِ أقول لكم كل شيء عن "الارض الموعودة" إلاّ مكانها... علينا مراعاة عوامل طبيعية كثيرة. فمن أجل تجارتنا العالمية في المستقبل، علينا التمركز على شاطئ البحر، ومن أجل زراعتنا المكننة علينا الإفادة من مساحات مترامية. والقرار سيتخذه مجلس الإدارة لدينا".

نعم. هذا هو أصل الصهيونية.

والتعريف الرسمي موجود في موسوعة "الصهيونية وإسرائيل" (منشورات هرتزل - نيويورك 1971) التي صدرت برعاية رئيس إسرائيل حينها، سلمان شازار (Salman Shazar).

ففي باب "الصهيونية" ورد التفسير الآتي: "مصطلح يعود الى عام 1890، أُطلق على حركةٍ اتخذت هدفاً لها عودة الشعب اليهودي الى أرض اسرائيل (فلسطين). ومنذ 1896، تُنسب "الصهيونية" الى الحركة السياسية التي أسسها تيودور هرتزل".

عندما أسس هرتزل هذه الحركة السياسية اصطدم بمعارضة الأكثرية الساحقة من اليهود والحاخام، بدليل أنَّ القسم الأكبر في الجزء الأول من يومياته (بين 1896 و1898) خصصه للرد على تصاريح حاخامات بارزين في تلك الحقبة مثل الدكتور غودمان (كبير حاخامات فيينا)، الدكتور مايرباوم (رئيس الجمعية الحاخامية الألمانية)، الدكتور فوغلشتاين (مؤسس ورئيس جمعية الحاخامات الليبراليين)، أدلر (كبير حاخامي لندن)، بلوش (حاخام بروكسل). كما خصص حيّزاً كبيراً آخر للردّ على كلود مونتيفيور (رئيس الحركة الليبرالية اليهودية في إنكلترا ورئيس الجمعية الأنغلو-يهودية)، الى رد آخر على تصريح من اللجنة التنفيذية في جمعية حاخامات ألمانيا (وقّعه حاخامات برلين، فرانكفورت، برسلو، هالبرشتادت وميونيخ) وهو يعارض "الأفكار المغلوطة" عن "مبادئ اليهودية وأهداف المؤمنين بها".

ردّة الفعل الأولى من المنظمات اليهودية الأوروبية على رسالة هرتزل، لخّصها روفوس ليارزي (Rufus Learsi) في كتابه "إسرائيل: تاريخ الشعب اليهودي" (كليفلند 1966) بمعارضة المنظمات اليهودية المهمة في أوروبا الغربية: الاتحاد الاسرائيلي العالمي في فرنسا، وفرعها في النمسا، جمعية الطائفة اليهودية في لندن.

هذا النقد اللاهوتي، أوجزه الحاخام هيرش بجدّة في "الواشنطن بوست" (1978/10/3) بقوله: "الصهيونية مناهضة تمامًا لليهودية. الصهيونية تريد تحديد الشعب اليهودي بكيانٍ قومي... وهذه هرطقة".

وفي تواصل مع هذا النقد اللاهوتي للصهيونية (أمتنع هنا عن القيام به احترامًا للإيمان اليهودي الذي تحديدُهُ من شأن حاخامات مؤهلين أكثر مني) استعدتُ في أول سطرٍ من كتابي موقعَها الديني فقلتُ: "هذا الكتاب يروي قصة هرطقة".

في محاضرةٍ للحاخام إلمر بيرجيه (Elmer Berger) "النبوءة، الصهيونية، ودولة إسرائيل" (منشورات "البدائل الأميركية اليهودية للصهيونية") ألقاها في جامعة ليدن (1968/3/20) كشف عن العبادة المزدوجة للأرض والعرق. ومما جاء فيها: *"أرض صهيون ليست مقدسة الّا إذا سيطرت عليها شريعة الرب. هذا لا يعني أن كل شريعة سُنت في القدس هي شريعة مقدسة. فالأرض وحدها لا ترتبط بالحفاظ والإخلاص للعهد، بل على الشعب الذي سكن أرض صهيون مجددًا أن يلتزم بمتطلبات العدالة والاستقامة والاخلاص لعهد الرب".*

ولم يكن ممكناً أن تنتظر أرض صهيون استعادة شعبٍ يعتمد المعاهدات والتحالفات والعلاقات العسكرية القامعة، أو تراتبيةً عسكرية تسعى الى تثبيت تفوقها على جيران اسرائيل. وفي التقليد التنبوي أن قدسية الأرض لا ترتبط بترابها، ولا بشعبها، بل بمجرد وجودها على هذه البقعة. وحده مقدّس وجدير بصهيون: عهدُ الرب كما يعبر عنه سلوك شعبه.

لكن الدولة الاسرائيلية الحالية لا تملك حق التذرع بإكمال المشروع المقدس. ففي ذلك غوغائية الدم والتراب. فليس الشعب مقدساً، ولا الأرض، ولا يستحقان أي تمايز روحي في العالم".

من هنا يَثبُتُ استخدامُ هرتزل الديانةَ أداةً سياسيةً تضمن مؤسسته الاستعمارية. وعلى طريقة اللاأدريينِ (القائلين بإنكار قيمة العقل وقدرته على المعرفة) يعتبر نفسه لاأدرياً، ويكتب في مذكراته:

"الحاخامات سيكونون ركيزة منظمتي... إنهم يشكلون تراتبية مَهيبة ذات سلطةٍ ستبقى طبعاً تابعة للدولة" (1895/6/14).

الهدف إذاً قومي. وفي سردِهِ تفاصيل لقائه بالحاخام الأكبر زادوك كاهْن باريس 1896/11/16) جزم أنّ "على الانسان الاختيار بين أرض صهيون وفرنسا". وأضاف (1896/11/18): "الفرنسيون الاسرائيليون، لو وُجدوا، ليسوا في نظرنا يهودًا، ولا علاقة لقضيتنا بشؤونهم".

هكذا استثنى هرتزل الايمانَ اليهودي، واعتبره عنصراً غريباً عن مشروعه الصهيوني الأهمّ: جمع اليهود في أمة. من هنا أن العداء للسامية عنده حليفٌ موضوعيٌّ يحثّ مواطنيه في الديانة اليهودية على الهجرة. وكان هرتزل يدرك هذا الأمر جيدًا حين كتب: "مناهضو السامية سيكونون أفضل حلفائنا". ومن هنا قوله للوزير الروسي فون بليهْفْ غداة مجزرة الإبادة الرهيبة التي نظّمها هرتزل نفسه في كيشينيف، إنه سيخلّص الوزير من ثوّاره اليهود.

هكذا إذاً، كانت الخطة تقضي باستثمار منافسات القوى الاستعمارية الكبرى: وعد الإنكليز بحماية طريق الهند (بدءًا من أوغندا أو فلسطين، وكلتاهما على تقاطع القارات الثلاث) من مطامع الالمان في الشرق الادنى. ووعد غليوم الثاني بحماية مشروعه "برلين، بيزنطية، بغداد" من الانكليز. وإذ كان الفريقان يتنافسان على اقتسام جثة الرجل المريض (الأمبراطورية العثمانية) اقترح عليهما حماية شركته **ذات الشرعة**: "ثمة قوة أخرى قد تحمي حركتنا. فكرتُ بإنكلترا أولاً، لكني سأكون سعيدًا لو تكون ألمانيا".

بهذا الابتزاز تمكّن (في 1898/10/19) من مقابلة أمبراطور ألمانيا، وكتب في مذكراته: "عندما عرضت عليه قضيتي: "الشركة ذات الشرعة" والحماية الألمانية لها، كان موقفه إيجابياً".

وهو عرض للأمبراطور الدورَ الذي تستطيع الصهيونية لعبه كي تخلّصه من الاشتراكية، فطالعه الأمبراطور بتخوّفِهِ من "عدم مغادرة اليهود ألمانيا إذا شعروا أنهم في حمايتها". لكن جواب هرتزل كان

جاهزاً: في نيسان/أبريل 1896، ردّ على دوق باد الذي خشي "اتهامه بمعادٍ للسامية إذا دعم قضيتنا" بقوله: "سيرحّب اليهود الألمان بحركتنا لأنها ستحوّل تدفّقَ يهود أوروبا الشرقية".

أبعد من كل هذه المساومات، أهم ما حققته دبلوماسية هرتزل كان اكتشاف الجامع المشترك لكل المستعمرين الغربيين، كما أورد في كتابه "دولة اسرائيل" (باريس 1926): "بالنسبة الى أوروبا، سنشكل فيها سوراً في وجه آسيا، وسنكون حراس الحضارة ضد البربرية".

منذئذٍ، ولسنوات طويلة بعدها، كان تأسيسُ دولةٍ تؤدي هذا الدور في الشرق الأدنى، يحظى بدعم جميع المستعمرين الغربيين.

2) النتائج السياسية لـ"تقديس" القومية

سنرى لاحقًا نتائج هذه السياسة في عهد هتلر، وكيف ساعدَ تعاضُدُ عدائه للسامية مع الصهيونية، في "إفراغ ألمانيا من يهودها" على حساب "ألمان من الدين اليهودي" طاردهم هتلر لأنهم أرادوا البقاءَ في ألمانيا وفرْضَ احترامِ دينِهم وثقافتِهم على الآخرين.

هذه المطالبة (المرتبطة نوعاً بالكتاب المقدس) ستبقى مرتبطة بسياسة الصهيونية (داخلياً وخارجياً) لترسيخ **الوحدانية** بحجة امتياز مقدس.

هكذا، باسم هذه الوحدانية الماورائية، مثلاً، أنا متهم بالتقليل من فداحة الجرائم النازية لأني أربطها بالتاريخ العام، لا بالتاريخ اليهودي وحسب. والتهمة نفسُها وُجِّهَت الى برنارد لازار ثم الى آنا آرِنْدْتْ عندما تحدثت عن "ابتذال الشر".

نحن متهمون بالتقليل من فداحة الجرائم النازية عندما نستبدل تعبير "اضطهاد المواطنين اليهود دموياً ووحشياً" بعبارة "عداء هتلر للسامية"، في سياق كلامنا على التاريخ العام.

لم ينفك كتابي عن شجب تلك المجزرة الكارثة التي ارتكبها النازيون. و لم أفكر يومًا في إنكار شجبي.

كذلك ذكَرَ كتابي "مخطط هتلر الفظيع"، و"وحشيته" وأنّ "جرائمه الكبيرة لا تخفي بشاعتَها أيةُ كِذبة". وإذ وصفتُ "الظروف البشعة التي سبَّبت عشرات آلاف الضحايا" خلصتُ الى أن: "هكذا كان حال استشهاد اليهود والسلافيين، تحت شراسة أسياد هتلريين عاملوهم عبيداً لا قيمة إنسانية لهم".

وأضفتُ: "لا يمكن التقليل من فداحة هذه الجرائم ولا من عذابات الضحايا التي يعجز اللسان عن وصفها"..."حتماً كان اليهودُ هدفَ هتلر المفضلَ، بسبب نظريته العنصرية بتفوُّق العرق الآري". واقترفتُ جريمة لا تغتفر في نظر الصهيونيين، بأنني حلّلتُ المجزرةَ

كحدثٍ تاريخي، أي ضمن إطار التاريخ العام الذي (للأسف) يتضمَّن عدة مجازر مشابهة: هنود أميركا، اعتقالات العبيد الأفريقيين، فيتنام، العراق، و"رواندات" أخرى كثيرة.

نزع الهالة الكارثية عن مجزرةٍ تاريخية، لم يحتمله من يريدون ان يجعلوا منها حدثاً دينياً يخرج من التاريخ.

ما الفرضية التي أسست لهذا الغضب، وأعلنت المجزرة حدثاً "فريداً" كما وصفه روي إكارْكْ عام 1974 في كتابه **هل الهولوكوست فريد؟**

إنها عقيدة "الشعب المختار"، وإنها، كما تحددها آنا آرنْدْت "إرادة ألاّ يُسْرَدَ من التاريخ إلاّ جانبه اليهودي". فالجريمة التي ارتكبها النازيون ضد اليهود فريدة، لا سابقة لها، خارج التاريخ، لأنَّ الرب اختار اليهود شعبًا فريدًا فوق الانسانية وقوانينها وتاريخها، و"أن يكون المرء يهوديًا يعني أن يكون إنسانًا اكثر" (حسب تعبير شتاينر)، و"يُصبح المرء انسانًا اكثر عندما يكون يهوديًا" حسب تعبير الحاخام إينزبرغ، مدير البرامج اليهودية في القناة الفرنسية الثانية، في كتابه **تاريخ يهود**، و"اليهودي أقرب الى الإنسانية من أي شخص آخر" (حسب تعبير ايلي ويزل في كتابه **احتفال تلمودي**).

أين نجد العنصرية والتمييز العنصري؟

المطران غريغوار حداد (في 1996/8/15) كتب: *"قتلُ النازيةِ يهودياً واحداً، أمرٌ غيرُ مقبول... لكنَّ إضفاء* ***هالةٍ كارثيةٍ مقدسةٍ*** *على الحدث، هو أيضًا أمرٌ غيرُ مقبول.*

صحيحٌ أنه حدثٌ تاريخي شنيع حقير لمن قضوا، لمن نجوا، ولأهلهم وللانسانية جمعاء. لكنه حدث تاريخي يخضع للدرس والتحليل والاحصاءات تماماً كأي حدث تاريخي آخر. وتحويله ظاهرة محرمة محظورٌ مسُّها، يعني تقديسه... عمَّ يتمّ تقديس ذاك الحدث؟ عن خوف؟

عن مصلحة في نفوذ أو مال؟ أم عن كليهما معًا، لأن الابادة الجماعية وحدها هي التي قُدِّسَت، بل احتكِرت، لئلا نقول صودرت...

الإبادة اليهودية مجزرة فظيعة، صحيح، لكنها ليست الوحيدة في التاريخ، حتى في التاريخ المعاصر. فضحايا النازية الآخرون بلغوا 56 مليونا. والفلسطينيين، ورثة الشعوب المقتولة، لهم حق المطالبة بتعويضات من ورثة الذين قضوا على أجدادهم. ومع أن حقهم في المطالبة بالتعويض لا يسقط بمرور الزمن، عفا الفلسطينيون عمّا مضى.

إن عند الصهاينة وسائل قديرة (سياسية، مالية، إعلامية، واضحة ومخفية) لتذكير العالم بمأساتهم: ***حملة مكثفة استثنائية*** *في جميع وسائل الاعلام، منها أفلام أسبوعية على الشاشات الصغيرة تقوم بعملية غسل دماغ مبرمجة* ***لئلا ينسى أحد.*** *والظاهرة النادرة (والفريدة) الناتجة عن شعور الآخرين بالذنب: التعويض السنوي والدائم المعطى لإسرائيل..." .*

تسخير الدين بهذا الشكل (من متشددين متزمتين أو ملحدين) هو في أساس كل الأساطير المؤسِّسة للسياسة الاسرائيلية.

فهوذا الحاخام موشي منوحين (والد الموسيقي) في كتابه: **انحطاط اليهودية** (انحطاطٌ أحدثته، في رأيه، الهرطقة الصهيونية) يقول: *"عزيمة الشعوب اليوم محبطة بمفاهيم العرق الاسمى، الشعوب المختارة، حِمْل الرجل الابيض، وعود الرب والأراضي الموعودة... وهي ادعاءات تستثمرها اليوم قوى قومية عدوانية ولاأخلاقية، ضد الشعوب الاضعف" ... " لم يعد لديهم سوى إله واحد: مساحة حيوية هي القومية الشوفينية" . وبعكس شمولية الأنبياء اليهود، جاء الشرح القبلي والقومي للوعد* ***والشعب المختار*** *من قِبَل من أسماهم "القبائل البربرية مثل بن غوريون، موشي دايان وكل العصابة العسكرية التي أفسدت اسرائيل" ، يجعل من الوكالة اليهودية والمنظمات الصهيونية في العالم كله "أعضاء في الحكومة الاسرائيلية" بالإيديولوجيا العنصرية نفسها التي لدى معادي السامية" ...*

"قلبي ينفطر لمؤشرات الانحطاط المستمر في اليهودية الراهنـة: يهودية أنبيائنا، فالاخلاقية والانسانية تتحوّل قومية تدّعي اليهودية، مفرَغة من المساحة الحيوية.

لذا أقول للإسرائيليين: عودوا الى إله آبائكم، الى اليهودية التنبؤية، وتخلوا عن نظام النابالم. عودوا الى الحدود التي أعطتكم اياها عام 1947 الامم المتحدة على حساب العرب المعوزين، وعيشوا حياة بناءة لا مدمرة".

التحليل نفسه يظهر لدى البروفسور إسرائيل شاحاك (Israël Shahak) من الجامعة العبرية في القدس (كتابه **عنصرية دولة إسرائيل**) إذ يقول: "الحكومة الصهيونية تستخدم الدين اليهودي لأهداف سياسية".

في محاولةٍ لتقديم حلول للتشدد الملتزم والدامي، يقترح المطران غريغوار حداد *"مفهوماً جديداً لفكرة "الشعب المختار" لا يعتبر الشعوب الاخرى "غير مختارين" من إله تمييزي جائر. فالكنيسة الكاثوليكية، في المجمع الفاتيكاني الثاني، شدّدت على طابعها الجماعي، بتمييزها عن طابعها المؤسساتي، وأعادت اكتشاف كلمة "شعب الله". وإذ كنت موجودًا في دورته الاخيرة عام 1965 اقترحتُ، حافزاً للاصلاح، إبدال "شعب الله" بـ "مريدي المسيح" استبعاداً لأي استنتاج يحط من قيمة الشعوب الاخرى الذين لن يصبحوا شعب الله".*

وأنا أظهرتُ ذلك: إن **أصل** الصهيونية السياسية لا علاقة له باليهودية التي يستعملها قناعاً.

إنه، منذ هرتزل، يتحدَّر كليًا من القومية الاوروبية والاستعمارية في القرن التاسع عشر.

هكذا البروفسور كيمرلينغ من جامعة القدس العبرية، كتب: "هذا النظام ليس يهوديًا ولا ديمقراطيًا" ("هآرتز" 1996/12/27).

وبما أن هذا هو الاصل، جاءت النتائج السياسية كارثيَّة، أستعرض منها هنا ثلاثاً:

1) التطهير الإتني: ترحيل الفلسطينيين واضطهادهم

ادعاء الوحدانية يبرر غزوَ المساحة الحيوية وترحيلَ الشعوب الأصلية تحت ستار أسطورة أن الفلسطينيين رحلوا طوعياً. لكنّ فتح محفوظات المؤرخين (ومنهم بيني موريس) كشفَ الحقيقة التاريخية: كان مع الجنود الاسرائيليين أوامر أن يطردوا بقوة السلاح أهالي القرى الأصليين، وبأساليب تذكر (كما في دير ياسين مثلاً) بأساليب "فرق الهجوم النازية عند قتلها السكان المدنيين".

هكذا انهارت أول أسطورة: رحيل الفلسطينيين طوعاً، وكان على رأس الدولة بن غوريون الذي يسميه بيني موريس "المبعِد الكبير" بتعبير ليس قدحًا كما يقول مُتَّهِمِيٌّ، بل هو تعريف.

أسطورة صهيونية ثانية انهارت أيضًا: مقولة "أرضٌ بلا شعب لشعبٍ من بلا أرض"، أطلقها زنغويل وتبنّتها غولدا مَئير في تصريح لـ "الصنداي تايمز" (1969/6/15): "لا وجود للشعب الفلسطيني. نحن لم نسلبه أرضه ولا طردناه. هو أصلاً غير موجود".

ولإثبات أن فلسطين كانت "صحراء" قبل اسرائيل، جُرِفَت مئات القرى ببيوتها وأسوارها ومدافنها وقبورها" (شاحاك: "عنصرية الدولة الاسرائيلية" _ 1975).

وكشف المؤرخ موريس، من فتح المحفوظات، منذ فتح الارشيف، عن 418 قرية فلسطينية (من أصل 475) زالت عن الخريطة. أما الفلسطينيون المبعَدون فعن "لجنة الترحيل الاسرائيلية" أنهم 460 ألفاً عند نهاية 1948. وفي الفترة نفسها جاء في تقرير "الأونروا" أنهم 900 الف.

أما الفلسطينيون المسيحيون ففي كلام بطريرك القدس اللاتيني على هجرة الكاثوليك الجماعية، أنْ لم يبقَ منهم سوى 10 آلاف مقابل 50 ألفاً قبل 1948.

وباستناد غولدا مَئير الى إقرار شرعي اساسه قراءة حرفية للكتاب المقدس، أعلنت: "هذه البلاد موجودةٌ إنجازاً لوعد قطعه الرب نفسه.

ومن السخف محاسبته على شرعيته". ("لوموند" 1971/10/15). لكن غولدا مائير نفسها أثناء محاكمة شاليت (ضابط بحري إسرائيلي متزوج إيرلندية غير يهودية، احتج على رفض إعطاء ابنه الأهلية اليهودية) قالت: "أنا لستُ متدينة"، مرةً أخرى تدّعي أنها نالت أرضها من رب لا تؤمن به. وهذا زورٌ وتضليل، ليس **قدحاً**، بل هو **تعريف**.

– نموذج ثالث (الأمثلة كثيرة، لكني أذكر الأشهَر): تصريح الجنرال موشي دايان في "الجيروزاليم بوست" (1987/8/16) "اذا كنا نملك الكتاب المقدس ونعتبر أننا شعب الكتاب المقدس، علينا امتلاك الأراضي المذكورة في الكتاب". وهو، أثناء حرب الأيام الستة، كشف عن دوافعَ لا تمتّ الى الدين بصلة: في رسالة منه (تعرّفت إليها ابنته، العضو اليوم في الكنيسست) الى صديقه الصحافي رامي طال (عام 1976) عبّر عن الأسباب الحقيقية لاجتياح الجولان: "الحوادث المسلّحة على خطوط التماس بين اسرائيل وسوريا (في80٪ منها، وأكثر، إنما لنقل 80٪) بدأت على هذا النحو: كنا نرسل جرارًا يحرث أرضًا لا منفعة لها في منطقة منزوعة السلاح، وكنا نعرف أن الجنود السوريين يقنّصون في اتجاهها. وإن لم يفعلوا، كنا نأمر الجرار بالتوغل أكثر الى أن نستفزهم فيطلقون النار. وعندها نستخدم المدافع ثم الطيران. هكذا كانت تسير الأمور".

وزارت رئيسَ الوزراء ليفي أشكول بعثةٌ من المزارع اليهودية أرسلها الجنرال ديفيد لايارس (كان يومها قائد منطقة الشمال ويرى الحرب تدور قربه ولا يشترك فيها) قدمت عرضًا أقنع أشكول التحرك". ("لوموند" 1997/6/2).

أكان ذلك ضرورياً، سأل رامي طال. "بالطبع كان كذلك". كل ما أراده أصحاب المزارع لم يكن سوى الأرض. فالبعثة ذهبت تقنع أشكول وهي تفكر بالقبض على الأرض [...] تحدثت اليهم. لم يحاولوا إخفاء رغبتهم بالارض [...] وأنا، تلك المرة، لم أقم بواجبي كوزير

دفاع. كنت مقتنعًا بألاّ أفعل ذلك، لكني لم أوقفه". ("لوموند" 1997/6/2).

وفي مذكرات أبا ايبان، وزير خارجية إسرائيل، اتضح الدور الذي لعبته "الاخلاقية" في سياسة التوسع لديه، وهذه المرة في لبنان.

في **مذكرات** موشي شاريت (1955/6/16) عن موشي دايان: "كل ما ينقصنا: ضابط عادي نستميله الى قضيتنا، أو نشتريه كي يرضى أن يعلن نفسه منقذ الموارنة، فيدخل الجيش الاسرائيلي الى لبنان ويحتل الأراضي اللازمة، ويؤسس نظاماً مسيحياً متحالفاً مع اسرائيل، وكل شيء سيسير بسهولة كما على عجلات، ثم يُلحَق جنوب لبنان كليًا بإسرائيل". وفي 1955/6/28 أكد موشي شاريت: "حبّذ رئيس الاركان فكرة شراء ضابط (لبناني) يرضى بأن يكون دمية بين أيدينا بشكل يبدو معه الجيش الاسرائيلي كأنه يلبي نداءًا لتحرير لبنان من المسلمين".

وإنني، من هاتين العمليتين الثابتتين، إذا سميتُ ذاك السياسي "مُحَرِّضاً" في العملية الأولى و"مفسداً" في الأخرى، فهذا ليس **قدحاً** بل هو **تعريف**.

أكتفي الآن بهذه الأمثلة الثلاثة، ولا علاقة لها بذمّ الشعب الاسرائيلي ولا الايمان اليهودي: الأمر يتعلق ببساطة بنزع القناع عن رياء القادة الصهاينة. وأكرر: عندما أشجب تصرف جماعة طالبان، لا أكون أذمّ الشعب الأفغاني الذي هو ضحيتها، ولا الاسلامَ الذي لا يشرفونه.

هذا الادعاء المنافق بتكليفٍ مقدس يحكم، من بداياته حتى أيامنا، كل سياسة القادة الصهيونيين الإسرائيليين.

أعطي بضعة أمثلة إجرامية.

في ما يخصّ الفلسطينيين، الخطة كانت واضحة: الأرض موعودة للبعض، فمن الحق، بل الواجب طرد الآخرين منها.

هذه بالضبط لغة النازيين، لغة هيدريتش مثلاً: "هدف السياسة اليهودية: هجرة كل اليهود الى أرض الميعاد" مع تفسير أن "الشعب المختار" هو **العرق الآري المنذور للسيطرة على العالم وترسيخ فضائله فيه**.

تمّ طرح المشكلة بوضوح تام، حتى قبل وجود دولة اسرائيل. فهذا مدير الصندوق الوطني اليهودي يوسف ويتز يدوّن منذ 1940 في مذكراته (تل أبيب 1965): "فليكن واضحاً لنا أنْ لا مكان لشعبين في هذا البلد. إذا تركه العرب سيكفينا [...] ولا وسيلة أخرى إلا تهجيرهم كلهم؛ يجب ألاّ تبقى قرية واحدة، قبيلة واحدة، ولْنشرح لروزفلت، ولكل رؤساء الدول الصديقة، ان أرض إسرائيل ليست صغيرة إذا رحل كل العرب، وإذا دُفعت حدودها قليلاً باتجاه الشمال، على طول نهر الليطاني، وشرقاً الى مرتفعات الجولان".

وفي "يديعوت أحرونوت" (1972/7/14) تشبّث يورام بار بورات بالهدف المنشود: "واجب القادة الاسرائيليين أن يشرحوا للرأي العام بوضوح وجرأةٍ حقائقَ يُنسيها مرورُ الوقت، في مقدمتها أنْ لا صهيونية، ولا استيطان، ولا دولة يهودية، من دون إبعاد العرب واستملاك أراضيهم".

هذا المبدأ الأساسي وضعه الحاخام كوهين في كتابه **التلمود** (1986): "بإمكان سكان العالم أن يتوزعوا بين إسرائيل والأمم الأخرى. إسرائيل هي الشعب المختار: هذه عقيدة أساسية".

من هنا، إن لم يكن بالابادة (على طريقة يشوع)، فأقله بمطاردة كل من ليس يهودياً وإخراجه من الأرض الموعودة للشعب المختار.

وهذه النقطة ليست رأياً صحافياً. إنها العقيدة الرسمية.

ويضيف ويتز: "أرض إسرائيل من دون العرب. ولا مجال للمساومة. يجب طرد العرب في اتجاه الضفة الغربية، أو سوريا أو العراق".

عام 1967 أعلن رئيس الكنيست (مير كوهين) أن "إسرائيل اقترفت خطأً بعدم طردها 200 ألف أو 300 ألف عربي من الضفة الغربية".

هذا هو إذاً برنامج الصهيونية المستمر: التطهير الإثني، وفي أساسه، مجدداً، قراءةٌ متشددةٌ حرفيةٌ أصوليةٌ للكتاب المقدس الذي يخلق هذه الثنائية غير القابلة للعلاج، هذه المواجهة الأبدية بين الشعب المختار والشعوب الأخرى.

الإحساس التقليدي للصهيونية، أنَّ كل من ليس يهودياً هو معادٍ للسامية. وعن هرتزل: ينقسم العالم بين معادين للساميين علناً وآخرين سراً. ومعاداة غير اليهود واقعٌ للصهاينة ثابتٌ وأبديٌّ في التاريخ اليهودي". وتخلص آنّا أرندْت الى أن "هذا السلوك عنصري شوفيني جلف، وهذا التقسيم بين اليهود والشعوب الأخرى (المعتبرة عدوة) لا يختلف عن النظريات الاخرى لعرق الأسياد". ("إنقاذ الوطن اليهودي"، مجلة Commentaire أيار/مايو 1948.

هنا، نحن في صميم محاكمتي المتعلقة بعقلية الصهيونيين. لذا عندما أقول عن السياسة الصهيونية إنها "تطهير إثني" أو "عنصرية شوفينية" لا يكون ذلك **قدحًا**، بل هو **تعريف**.

ويفترض من يتهمونني، بأنَّ كل نقد للصهيونية أو للسياسة الاسرائيلية عداءٌ مقنع للسامية ولنازية جديدة. وعندما نشرت آنا أرندت كتابها: **إيخمان في القدس** اختصرت "لو نوفيل أوبسرفاتور" حملتها البشعة عليها بعنوان: "هل آنا آرندت نازية؟"، تماماً كما نسي مُتّهِمِيَّ أن أوائل انتقاداتي الصهيونية (شرّعتها محكمة التمييز عام 1982)، أعقبَها صدور **قضية إسرائيل** (1983) و**فلسطين أرض الرسالات المقدسة** (1988)، وأنَّ ذاك النقد كان جزءًا من معركتي الدائمة ضد العداء للسامية والتشدد في جميع أشكاله (الصهيوني، المسيحي أو الشيوعي أو الاسلامي) عندما قلت في مؤتمر الحزب الشيوعي الفرنسي إنّ "الاتحاد السوفياتي ليس بلدًا شيوعيًا"، وأنني

كتبت: "مسيح بولس ليس يسوع" (**نحو حرب ديانات** 1995)، وكتبتُ: "الأصولية مرضٌ في الاسلام" ("عظمة الاسلام وانحطاطه" 1996).

هذا هو امتداد كل معركتي في سبيل حوار بين الحضارات، وكذلك -كما كتبت حول المجمع الفاتيكاني الثاني - في سبيل العبور **من المحرم الى الحوار** (1965).

كل هذا أثار جدلاً حيويًا مفيدًا لي (واتمنى ان يكون كذلك لمن حاورني) لكني عندما انتقدت **الأساطير المؤسِّسة للسياسة الاسرائيلية** لم يقتصر الامر على دحض كتابي، بل اتصلوا بالشرطة والقضاء ونظموا هجوماً إعلامياً عشوائياً وهددوني بالقتل.

لدينا دلائل حديثة عن هذه الكراهية للشعوب الاخرى ولثقافاتها بعامة. مثال لافتٌ جداً: كتاب جوناثان غولدهاغن: **جلادو هتلر المتطوعون** يفترض أنّ الشعب الألماني كله مشارك في الفظائع النازية ومسؤول عنها. وبتأثير صهيوني، جعلت الصحافة منه أكثر الكتب مبيعاً في العالم، إذ يعطي (في ادعاء الكاتب) تبريراً للمجزرة التي أصابت اليهود، يتلخص بالآتي: الألمان قتلوا لأنهم في الأساس شعب قاتل. وعن التشخيص الساخر أن "الأفيون ينوّم لأنَّ فيه مادةً منومة".

ولا يشابه هذا العُتْهَ التاريخي إلاّ ارتقاء هتلر السلطة بنيله غالبيةَ أصوات انتخابية دلّت على ضلوع غوغائيته الدامية في الرأي العام، بسبب وضع يائس خلقته معاهدة فرساي في المانيا. وعن الاقتصادي المعروف لورد كينز (عام 1919) في كتابه **نتائج السلام الاقتصادية**: "اذا كنا نعمد الى إفقار أوروبا الوسطى، أرى أن الثأر سيكون فظيعًا: بعد 20 عاماً من اليوم سنعرف حرباً تدمِّر الحضارة أياً كان الرابح". وكنتُ أعطيت في كتابي إحصاءاتٍ عن ارتفاع نسبة البطالة الموازي لنسبة ارتفاع أصوات الحزب النازي في الانتخابات.

هذا المثل ليس يتيماً: فنحن عندنا في فرنسا غولدهاغن آخر: برنار هنري ليفي الذي (في كتابه **الإيديولوجيا الفرنسية** 1981) شرح: "منذ

فولتير والثورة الفرنسية، الى شارل بيغي والتقاليد المسيحية، وحتى الى المحلل اليهودي الكبير برنارد لازار (اقترف في كتابه الممتاز جريمة وضع العداء للسامية في سياق التاريخ العام) نجد أنّ سلوكنا هيّأ لفاشية على الطريقة الفرنسية: فيشي". وقال: "كل الثقافة الفرنسية تظهر قِدَمَ عهدنا في الحقارة مما يجعل من فرنسا "وطن النازية"..."فرنسا هذه، أعرف وجهها القذر، وأعرف ملامح الوحوش التي تسكنها".

وحين أقول إنّ واضعَ كتابٍ كهذا يقدم (مثل غولدهاغن)، يوضح أعراض المرض الصهيوني في **كتاب الكره**، لا يكون ذلك **قدحًا** بل هو **تعريف**.

واذا كان كل نقد للسياسة الاسرائيلية (كما يوضح عنوان كتابي) هو عداء للسامية، فإن جَدَّ العداء للسامية يكون النبي ميخا الذي قال: "إسمعوا هذا يا رؤساءَ آل يعقوب وحكامَ آل إسرائيل الذين يمقتون العدل ويعوِّجون كل استقامة، الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليمَ بالإثم: إنما رؤساؤها يحكمون بالرشوة، وكهنتها يعلّمون بالأجرة، وأنبياؤها يتّخذون العرافة بالفضة، ويعتمدونِ على الرب قائلين: الربُّ في وسطنا، فلا يحلُّ بنا شرّ. لذلك، ستحرَثُ صهيون بسببكم كحقلٍ، وتصير أورشليم رُجَماً، وجبلُ البيت غاباً أشعث" (ميخا: 3/9–12).

عندما تفتح الحكومة الاسرائيلية الطريق 66 وتمنع غير اليهود من سلوكها، وأُسمّي ذلك "تمييزاً عنصرياً"، لا يكون ذلك **قدحًا**، بل هو **تعريفٌ** جاء آلان فينْكِلْرو بأقسى منه (مقاله في "لوموند" 1996/12/18 بعنوان "إسرائيل الكارثة") إذ قال: "مع نتنياهو تخرج لغة التمييز العنصري من السرية"..."وبفظاظة أكثر أقول: في إسرائيل فاشيون، وإنما أيضاً في أميركا وفرنسا. لذا يمكننا الكلام على "كارثة روحية"..."التضامن مع إسرائيل يتبدل اذا وافقت، بلا مقاومة، ان تعود الكلمة الاخيرة لرعاة البقر المسلحين".

ولا تقتصر نتائج أسطورة الوحدانية على جعل التاريخ مفهوماً عبر خلق ما ورائيات له حول معركة الخير ضد الشر، الله ضد الشيطان،

أي ما تسميه الصهيونية "الشعب اليهودي" (أو تسميه الهتلرية العرقية "العرق اليهودي") وهو يمثل ا لله، فيما باقي العالم يمثل الشيطان، كما يقول أتباع غولدهاغن أو برنار هنري ليفي.

بهذا يكون الحاخام ليفين معادياً للسامية عندما استشرف في كتابه **اليهودية في مواجهة الصهيونية** (1969) ان ابتزازات اسرائيل ستطلق العداء للسامية، بقوله: "الصهاينة يقودوننا الى الكارثة".

كذلك يكون تيو كلاين (محام، ورئيس سابق للمجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في فرنسا) معادياً للسامية عندما نشر في "لوموند" (السبت 1998/5/30 بعنوان: "يا سيد نتنياهو، دع فرصة لإسرائيل") مقالاً جاء فيه: *"من الخطأ الى الفشل، مزجتم فن السياسة بمسرح الظلال. في السياسة الداخلية شجعتم تقدم التقليديين نحو حلمهم بدولة تيوقراطية. وفي السياسة الخارجية كسرتم اندفاع اتفاق أوسلو. أتعتقد أنّ بالجدل بين شيوخ جمهوريين ورئيس ديمقراطي يمكن حلُّ مشكلة إسرائيل الكبرى: تعايشها مع جيرانها العرب وفي درجة اولى، مع الفلسطينيين؟ إن هؤلاء، ولنعترف بذلك، شركاء في ملكية أرض إسرائيل فلسطين.*

*هذه أرضكم، أرضي، ولكنها أيضًا أرض عرفات وزياد قواس، صديقي. إن العالم يتطلع الى سياسة تقود الشعب الاسرائيلي الى أمنٍ أساسُه السلام أي الحوار والتعايش. لكن سياستكم تنغلق داخل منظورٍ أمني تغذيه المخاوف. تلعبون على ردود فعلنا القديمة حول الغيتو وشعاره المميت: **كلّهم ضدنا**. وإنما كلهم: المسيحيون، المسلمون، وكلُّ من في العالم، يستغربون جداً ويغتاظون من سياستكم.*

أَوقِفْ هذا السقوط صوب إغراءِ حلمٍ مجنون بأرض يكون فيها اليهودي مواطناً، والعربي مقيماً ساكناً. أتركْ مجلس الشيوخ الأميركي. أهجر الأوهام التهويمية. إصعد نحو جبال اليهودية والجليل الخصبة. إنها المهد المشترك لشعبينا. ولد فيها اسحق واسماعيل. علينا المشاركة فيها، واعتبارها الأرض الحبلى بالتاريخ، بالثقافة وبحياة شعبينا. نداؤها الروحي

غير المألوف يجب ان يشجعنا على مشاركةٍ في السكن مسالمة، أبعد من السلطتين المعترف بهما. ويجب اختراع ميثاق احترام متبادل، اتحاد للتطور على هذه الأرض المشتركة، وبناء حياة يكون فيها كل واحد عند الآخر وكأنه في بيته.

*صحيح أنّ على الأرض إرهاباً حقيراً إجرامياً، وصرخات كراهية، وأعلاماً محروقة، وبنوداً غيرَ محترَمة في اتفاقات مبرمة، وأموراً تتعدى الوضع المجمّد. ولكن هل السلطة الفلسطينية وحدها مسؤولة؟ اذا كان حكم هذا **البلد القديم الجديد** يعني لك تكرار براهين قديمة ممزوجة بمشاعر خوف متسلطة تحقيرية من دون رفع فكرك السياسي أعلى من مشاجرات أكثريتك في المجلس، وإذا كنت لا تستطيع حتى الاستماع الى اخبارٍ ونصائح دوائر الامن عندك ولا تستطيع حتمًا تغيير السياسة، فامتنعْ إذًا تولي حِمْلٍ يَرزح تحته ذكاؤك السياسي وشجاعتك المناقبية".*

حين يتكلم بهذه اللغة النبيلة والصافية، مُعَصْرِناً لغة النبي ميخا، هل يكون تيو كلاين معادياً للسامية؟

في هذا المنحى، حتى ولو لم نكن نشارك القناعات الدينية والسياسية ذاتها، يصبح الحوار والسلام ممكنين. وإلاّ، إذا بقينا نعتبرُنا فريدين وأبرياء من كل مسؤولية، تصبح أسوأ الاضطرابات ممكنة.

إننا، هنا، في قلب هذه المحاكمة. وما يعطيها معناها الأعمق: الغموض، أو الغش الذي يقْدِم على الخلط بين الصهيونية واليهودية عبر المزج، تحت اسم **الصهيونية** بين الصهيونية الدينية والصهيونية السياسية، كما في قول الحاخام آيزنبرغ إن "نقد الصهيونية يعني الانزلاق نحو العداء للسامية. فليس من يهودية معقولة من دون صهيونية".

هل اليهودية بدأت إذاً مع مؤتمر بال؟

طبعاً لا. فالكاتب حاييم هرتزوغ في قصته **الزارع** جعل بطلها ياندكر يقول: "الصهيونية تبدأ مع خيبة اليهودية".

عندما يدعي الكثيرون تحقيق استمراريةٍ تاريخية بين إسرائيل المرتبطة بالكتاب المقدس ودولة اسرائيل الحالية، يذكرون صلاة يهودية قديمة تقول: "السنة المقبلة في القدس" على أنها دعوة الى الغزو، ويغفلون أن "السنة المقبلة في القدس" هو أيضًا تمني آلاف المسيحيينٍ في العصور الوسطى كما تشهد، على زجاج كاتدرائيات عديدة، صورةُ قدس من الحجارة تعني لهم "القدس السماوية"، مملكة الرب التي لا ندخلها بالغزو بل بالزهد.

على هذا الغموض في التفسير استندت الحروب الصليبية، قبل الصهيونية الإسرائيلية، حين ملأ طرقاتِ أوروبا فرسانٌ يحملون الصليب على أسلحتهم، قاموا بعمليات إبادة ضد اليهود ثم ذبحوا مسيحيي قسطنطينية، قبل حرق اليهود اللاجئين داخل السيناغوغ وإراقة دم المسلمين في الشوارع.

أين يسوع في كل هذا، هو الذي شكّل قبره الفارغ حجة للقتلة اليهود والمسلمين والمسيحيين؟

بالمستوى نفسه من الحجة الإيديولوجية الغاشّة نجد إعلان الملحد بن غوريون "سنحدث مملكة داود الثالثة"، مهاجمًا القدسٍ بالنابالم كما استولى عليها داوود والصليبيون بالسيف والنار، وفاتحًا الطريق أمام عبادة صهيونيةٍ أبدلت إله اسرائيل بالدولة الإسرائيلية.

وفي هذا كتب البروفسور إسرائيل شاحاك: "غالبية شعبنا فقدت ربها وأحلت مكانه وثنا معبودًا تمامًا كما عبدوا العجل الذهب في الصحراء. واسمُ وثنهم الحديث: دولة اسرائيل". (**عنصرية دولة اسرائيل**).

أين النبي ميخا من كلِ هذا، هو الذي تنبأ: يضربون سيوفهم سككاً وأسنّتهم مناجلَ فلا ترفع أمةٌ على أمّةٍ سيفاً ولا يتعلمون الحرب من بعد. ويقيم كلٌّ واحدٍ تحت كرْمته وتحت تينته، ولا أحد يذعره لأن فم رب الجنود قد تكلّم" (ميخا: 4/3-4).

2– تعاوُنُ الصهاينة مع هتلر

لم تظهر هذه الهرطقة بهذه القوة كما في الحرب العالمية الثانية حين الهدف الوحيد لبناء دولةِ إسرائيل القوية، قاد القادة الصهاينة الى التعاون مع النازيين.

بعض القادة الصهاينة رحب بوصول هتلر الى السلطة، إذ كانوا يشاركونه إيمانه بأولوية العِرق وعدائه لاستيعاب اليهود. وابتهجوا لانتصار هتلر على العدو المشترك: القوى الليبرالية.

وقبل أن يهاجر الحاخام الصهيوني الدكتور يواكيم برينز الى الولايات المتحدة ويرقّى نائباً لرئيس المؤتمر اليهودي العالمي ويصبح هادي المنظمة الصهيونية العالمية (هو أيضًا صديق مقرّب من غولدا مائير) نشر في برلين كتاب **نحن اليهود** (1934) لمناسبة الاحتفال بالثورة الالمانية الهتلرية وتفكك الليبرالية، قال فيه: "معنى الثورة الألمانية عند الأمة الألمانية واضح (أو قد يكون كذلك) عند من خلقوها وصنعوا وجهها. أما عندنا فالليبرالية أضاعت كل فرصها، وانتفى كل شكل للحياة السياسية التي تشجع استيعاب اليهود"..."نريد ان يحلّ قانون جديد مكان الاستيعاب، يعلن **الانتماء الى الأمة اليهودية والعِرق اليهودي**. إنّ دولة تأسست على مبدأ الأمّة والعِرق لا يمكن إلاّ أن يحترمها اليهودي الذي يعلن انتماءه الى شعبه الخاص، لأنّ من يكرّم أصوله ودمه، يحترم ويكرّم الإرادة القومية للدول الاخرى".

كان بذلك يأمل أن تسهّل اسطورة العِرق الآري ازدهارَ الأسطورة الصهيونية للعرق اليهودي.

في المنحى نفسه، وفي مذكرة وجهها قادة صهاينة في ألمانيا الى هتلر (1933/6/22)، جاء: "تعتقد الصهيونية ان عودة الحياة القومية للشعب، كما في المانيا اليوم عبر تثمين بعديها المسيحي والقومي، يجب ان تتم عند الشعب اليهودي أيضًا. وعلى الأصل القومي والدين والمصير المشترك ومعنى طابعه الاستثنائي، أن ترتدي أهمية رئيسية لوجود الشعب اليهودي. وهذا لا يحصل الاّ بنزع التفرد الأناني للحقبة الليبرالية

وإبداله بحسّ الجماعة والمسؤولية الجماعية"..."في حال وافق الالمان على هذا التعاون، يجهد الصهاينة لتحويل اليهود في الخارج، والدعوة الى مقاطعة كل ما هو ضد الألمان (لوسي دافيدوفيز **الحرب ضد اليهود** 1977).

وافق القادة الهتلريون. ومنظّر النازية الرئيسي ألفرد روزنبرغ كتب عام 1937: "يجب دعم الصهيونية بقوة، كي يتم سنويًا نقلُ يهودٍ ألمان الى فلسطين".

وعلى أساس إيديولوجيا العرق هذه (الشبيهة بمبدأ النازيين) بدأ القادة الصهاينة الألمان يفاوضون الهتلريين.

عند وصول هتلر الى السلطة كان في صفوفه يهود ألمانٌ انضووا الى الصهيونية المركزية يشكلون 5٪ من يهود ألمانيا، فيما 95٪ انتسبوا الى جمعية الالمان اليهود ممن كانوا ينوون البقاء ألمانًا ويحاربون لفرض احترام ديانتهم.

النازيون حسموا خيارهم سريعاً: تباحثوا مع الصهاينة الذي كانوا بالنسبة اليهم يهودًا لائقين يحضِّرون للرحيل الى فلسطين، مشجعين هكذا سياسة الفاشية الهتلرية للتطهير الاتي: إفراغ ألمانيا من اليهود. وبدأ اضطهاد اليهود الذين كانوا يريدون البقاء ألمانًا ضمن احترام ديانتهم.

أ- اتفاق الترحيل

انطلاقاً من مبدإ العرق الذي يحقق نظرية هرتزل "المعادون للسامية سيكونون أفضل حلفائنا"، وقعت الوكالة اليهودية مع وزير الاقتصاد (1933/8/27) اتفاق ترحيل يتيح للمهاجرين اليهود نقل بعض ممتلكاتهم من ألمانيا النازية الى فلسطين. وحظي الاتفاق بموافقة بن غوريون (كان في فلسطين)، وغولدا مَئير (كانت في نيويورك)، ووزراء إسرائيل الصهاينة اللاحقين: موشي شاريت (كان يدعى يومها موشي شرتوك)، ليفي أشكول (كان ممثل الوكالة في برلين).

ووجد الفريقان مصلحتهما في الاتفاق:

– النازيون تخلصوا من اليهود، وحصلوا على حليف (صهيوني) لكسر المقاطعة الاقتصادية والمضادة للفاشية. ففي 1933/3/26، أبرق كورت بْلامِنْفيلْدْ (رئيس الاتحاد الفدرالي الصهيوني) ويوليوس بْرودْنِيْتزْ (رئيس الجمعية المركزية) الى لجنة اليهود الاميركيين في نيويورك: "نعترض بحزمٍ على التجمعات والبرامج الاذاعية والتظاهرات الأخرى، ونطلب فرضَ تدابير حازمة لمنع التظاهرات المعادية لألمانيا". (سول فرِدْلاندِرْ: **ألمانيا النازية واليهود** 1997).

– واليهود في فلسطين (قبل خلق دولة اسرائيل) وجدوا الاتفاق ملائماً. وكتب القائد الصهيوني موشي بيلينسون الى بيرت كاتزْنلسون (مدير صحيفة "دافار" اليومية الرئيسية: "الطرق معبدة بمال أوفر مما حلمنا يومًا في تاريخ مؤسستنا الصهيونية. إنها مناسبة للبناء والازدهار كما لم نفعل يومًا، وكما لن نفعل ابدًا". (أوردها توم سيغيف في كتابه **المليون السابع**).

أساس هذه الغبطة: تَفَهُّم النازيين. وتُذَكِّر آنّا آرندت في كتابها **إيخمان في القدس**: "في البدء كانت سياسة النازيين تجاه اليهود مناصرةً للصهاينة ومن دون جدل".

استمرّ هذا الواقع طوال خمسة أعوام من النظام الهتلري، حتى 1938.

حين كان راينهاردت هايدريتش (لاحقاً حامي تشيكوسلوفاكيا الدموي) رئيسًا لجهاز الأمن، كتب "يجب أن نفصل بين فئتين من اليهود: الصهاينة ومؤيدي الاستيعاب. فالصهاينة يجاهرون بمفهوم عنصري بحت، ويسهمون، عبر الهجرة الى فلسطين، في بناء دولتهم اليهودية... أمنياتنا وإرادتنا الرسمية معهم" (هوهْني: **نظام رأس الميت**).

وأشارت نشرة نازية من القائد النازي بولو شْوانْتي (1934/2/28) الى جميع بعثات الرايخ الدبلوماسية الى أنّ "الأهداف التي اتخذتها هذه

الفئة (يهود يعارضون الاستيعاب ويؤيدون تجمع إخوتهم بالدين في قلب مركز قومي)، وفي طليعتها الصهاينة، هي أقرب الاهداف الى السياسة الألمانية تجاه اليهود". وفي 1935/4/13 كتب شْوانتي الى وزير الداخلية: "ليس من سببٍ لتعطيل النشاط الصهيوني في ألمانيا بتدابير إدارية لأن الصهيونية لا تتناقض مع برنامج النازية، وهدفها ترحيل اليهود الالمان تدريجياً".

هذا التوجُّه الذي يؤكد تدابير سابقة، نُفّذَ حرفياً. وبحُكم هذا المركز المميز للصهيونية في ألمانيا النازية، أصدرت شرطة بافاريا (1935/1/28) تعميماً الى رجالها: "نظراً لنشاط أعضاء المنظمة الصهيونية في توجيه اليهود نحو الهجرة الى فلسطين، لا تعاملوهم بالشدة نفسها التي بها تعاملون أعضاء المنظمات اليهودية الألمانية الأخرى (الاستيعابيين)". (كورت غروسمان: **الصهاينة وغير الصهاينة تحت القانون النازي في الثلاثينيات** الكتاب السنوي).

قبل نهاية مدة اتفاق الترحيل، ارتدى هذا التعاون أشكالاً غريبة. فالبارون ليوبولد فون ميلْدِنشْتاين (لاحقاً رئيس القسم اليهودي في جهاز الاستخبارات الذي كان يديره راينهارد هيدريتش) كلف عام 1933 بالسفر الى فلسطين (مع زوجته) لكتابة سلسلة مقالات لجريدة غوبلز "الهجوم". وقام الزوجان (يرافقهما كورت تاتشلر، عضو بارز في منظمة برلين الصهيونية، وزوجته) بزيارة قرى مستوطنات يهودية (ستصبح لاحقاً إسرائيل). وصدرت المقالات إيجابية جداً في سلسلةٍ عنوانها: "نازيٌّ يزور فلسطين"، وخلّدَ الحدث بمِدالية تحمل على إحدى جهتيها الصليب المعكوف، وعلى الجهة الأخرىَ نجمة داوود.

ورغم إعلان حاييم وايزمن الحرب على ألمانيا (5/9/ 1939) والوقوف مع الحلفاء، فالمعاهدة الصهيونية الالمانية ظلت قائمةً حتى "ليلة الكريستال" (1938). ولم تتزعزع الا عندما اقترح المصرفي اليهودي ماكس فاربرغ توسيع اتفاقات مشابهة لاتفاق الترحيل، من أجل تمويل هجرة اليهود الالمان الى بلدان أخرى غير فلسطين.

بعد **ليلة الكريستال** والمجزرة التي كانت حجتها محاولة اغتيال دبلوماسي ألماني في باريس، اشتدت مطاردة اليهود، واتخذ تعاون الصهاينة مع الهتلريين أشكالاً أخرى. في البلدان المحتلة شدد النازيون مراقبتهم المجالس اليهودية في الغيتوات والمعتقلات، وداخل فلسطين صمّم الصهاينة ألا يسحبوا من ألمانيا هتلر إلا الأغنياء والأكفياء، تاركين له اليهود المسنين (العاجزين عن المساهمة لاحقاً في بناء الدولة التي يهيِّئون لها) معتبرينهم قوى إنسانية غير مرغوب فيها.

ب- المجالس اليهودية

دور المجالس اليهودية على عهد هتلر، أثارته آنّا آرندت في كتابها "**إيخمان في القدس**". ومع أنه لم يترجم الى العبرية، أثار ردّات فعل هستيرية لأن انتقاداته، في آن واحد، شملت المجالس اليهودية والصهاينة الذين كانوا عموماً رؤساءه.

وأكّد تحليلَها بولياكوف في "**كتاب الكُرْه**": "حِبرٌ كثير أُهدِر عن المجالس اليهودية، أدوات تنفيذ الإرادات الألمانية على كل مستوياتها. عار لا يمكن محوه كان ممسكًا بأجهزة التعاون، أفراده أسياد في الغيتو ويستفيدون من امتيازات.

خطيراً كان دور هذه المجالس تحت مراقبة النازيين: أبرزه أنها كانت تسلِّم أعدادًا كبيرة من اليد العاملة التي يطلبها المحتل. "كانت المجالس تعدِ لوائح المبعدين. وكان اليهود يدونون أسماءهم فيها ويملأون طلبات لا تحصى، الى استفتاءات من عدة صفحات تتناول أموالاً يسهل حجزها".

وعن آنّا آرندت: "خلال محاكمة آيخمان في القدس، كشف القاضي هاليفي في استجواب مضاد، أن النازيين كانوا يعتبرون تعاون اليهود حجر زاوية للسياسة اليهودية. فحيثما كان يهود، كان بينهم مسؤولون عنهم تعاونوا بطريقة أو بأخرى، لسبب أو لآخر. ولو كان الشعب اليهودي غير منظم حقاً، لعَمَّت فيه الفوضى وأدَّت به الى مآسٍ

كثيرة. وعن فرويديغر، كان يمكن 50٪ من اليهود أن ينجوا لو لم يتبعوا إرشادات المجالس اليهودية".

ويعطي بولياكوف في كتابه أمثلة حيّة: "بين أبرز الغيتوات، غيتو لودز (المدينة الثانية في بولونيا المضمومة) يستحق تنويهًا خاصًا. فالمدينة كانت مركزاً صناعياً، والغيتو فيها (منذ1940) ضمّ في أول إحصاء أكثر من 160 ألف شخص، وكان يحل ثانيًا بعد فرصوفيا وبفارق كبير. وكانت صناعاته المنوعة (خصوصًا مصانع النسيج) رصيدًا ذا قيمة كبيرة في الاقتصاد الألماني.

وكما في الأماكن الأخرى، كان تنفيذ الإرادة الألمانية في غيتو لودز يتم بواسطة مجلس يهودي رئيسه حاييم رومكوفسكي، ديكتاتور حازم في الغيتو، بين يديه كل الصلاحيات: يرفع الضرائب، يضرب العملة، تحوطه زمرة من المتملقين والمبخّرين. ويكتب الشعراء غنائيات لتعظيمه، وتلامذة المدارس يوجهون اليه أمنيات خطية في السنة الجديدة".

في فرنسا لعب "الاتحاد العام للإسرائيليين في فرنسا" دور المجالس اليهودية، فكان، لحساب مفوضية الشؤون اليهودية والسلطات الألمانية، يكتب بطاقات اليهود الفرنسيين وخصوصًا الأجانب، ويفصل بين اليهود الفرنسيين والأجانب في لغة تمييزية كان يعتمدها من دعاهم أخلافهم **النازيين الجُدُد**.

جاك هيلبرونر، رئيس المجمع الديني (الممثل المركزي لليهود في فرنسا) رأى الأمور على هذا النحو منذ حزيران/يونيو 1933: "لدى فرنسا، كأي بلد آخر، عاطلون عن العمل. وجميع اللاجئين اليهود من ألمانيا لا يستحقون البقاء [...] وإذا كان بينهم 100 أو 150 مفكرا يستحقون بقاءهم في فرنسا لأنهم علماء أو كيمائيون يملكون أسرارًا يجهلها الكيمائيون عندنا، فسنبقيهم. لكن السبعة آلاف أو الثمانية آلاف أو ربما العشرة آلاف يهودي الذين سيصلون الى فرنسا، هل من صالحنا حقًا إبقاؤهم؟".

بالنسبة اليه، اللاجئون اليهود أوباش، حثالة المجتمع، عناصر لم تكن لها فائدة عندما كانت بين ذويها. و لم تخفف هزيمة فرنسا من عداء هيلبرونر لليهود الأجانب.

وفي كتابهما "**فيشي واليهود**"، أكد ماروس وباكستون "تعبير بعض الشخصيات اليهودية في فرنسا عن عدائها لوجود يهود أجانب بينهم باعتبارهم مسؤولين عن الفتنة المضادة للألمان".

وهذه عادة قديمة: ففي 1938/11/19 صرح الحاخام الكبير ويل لصحيفة "الأمة" انه لا يريد أخذ أي مبادرة "قد تعطل بأي شيء محاولات التقارب الفرنسي الألماني".

في مقدمة كتاب موريس رافسجوس (Maurice Rafsjuss) **يهودٌ داخل التعاون** كتب فيدال-ناكيه: "الشك، عموماً، ممنوع. وجهاء اليهودية الفرنسية دخلوا في لعبة تعاون خطيرة مع العدو، في سياسة تهدف، وفقًا لتعبير سارتر، الى سَلْسَلَة اليهود، ومواجهة بعضهم بعض "فرنسيين وأجانب"، مناضلينٍ قدماء موثوق بهم ومهاجرين حديثي العهد، فرنسيين أصليينٍ ومجنسين. الوجهاء دعموا "الاتحاد العام للإسرائيليين في فرنسا" أياً كانت نوايا مؤسسيه ومصيرهم، مما ساهم في تغذية آلة قتل اليهود.

ومن شهادة ألبير أكِرْبرْغ (أمين سر عام لجنة الاتحاد والدفاع عن اليهود في فرنسا (تحت الاحتلال): "علمتُ أن رؤساء "الاتحاد العام للإسرائيليين في فرنسا" مرّوا أمام هيئة محلفين يترأسها ليون مايز رئيس اللجنة المركزية ليهود فرنسا، وتتألف من أشخاص عاشوا الحرب في سويسرا، في الولايات المتحدة أو في بلدان أخرى من دون مجازفات كثيرة. في هذه المناسبة كان عليَّ الكتابة الى ليون مايز للاحتجاج على طريقته، ولَفْتِهِ الى استشارةٍ من ناضلوا في ظل الاحتلال ولهم وجهة نظرهم. كان ردّ مايز بسيطًا: يجب أن نعرف كيف ننسى الأحداث. غفرنا لرؤساء "الاتحاد العام للإسرائيليين في فرنسا" و لم يكن بوسعنا غير ذلك، لمصالح المجتمع اليهودي العليا".

ومن فضيحة ذلك، أنّ التلفزيون يبث حاليًا (غير مرةٍ في الشهر الواحد) أفلامًا عن عذابات اليهود تحت الاحتلال، ولا تبث أبدًا أفلامًا مثلاً عن اليهودِ الأبطال الذين حاربوا الفاشية بأيديهم حتى الموت، متطوعين يهوداً في فرق جيوش دولية كانت تشكل ثلث فيلق لينكولن ونصف فيلق دومبروسكي البولوني.

لِمَ هذا الصمت؟ لأن القادة في لندن (ردًّا على سؤال: "هل يجب أن يشارك اليهود بالحركات المضادة للفاشية"؟) قالوا: "كلا!..." وحددوا الهدف الوحيد: بناء أرض اسرائيل. (مجلة "الحياة اليهودية" نيسان/أبريل 1938).

عضو السلطة التنفيذية في "الوكالة اليهودية" إسحق غرينبوم أعلن (1943/1/18) أنّ "الصهيونية تأتي قبل كل شيء... سيقولون إنني معادٍ للسامية ولا أريد إنقاذ المنفيين، وليس لي قلب يهودي حنون [...] فليقولوا ما يشاؤون. لن أفرض على الوكالة اليهودية تخصيص 300 ألف ولا 100 ألف ليرة استرلينية لمساعدة اليهودية الأوروبية. وكل من يفرض ذلك معادٍ للصهيونية". (كتابه "أيام الدمار").

وهذا أيضاً كان رأي بن غوريون: "ليست مهمة الصهيوني إنقاذ "بقايا" إسرائيل الموجودة في أوروبا بل إنقاذ أرض إسرائيل من أجل الشعب اليهودي"...

"الكارثة التي تواجهها اليهودية الأوروبية ليست من شأني"(كلمته لدى جمعية مناضلي "ماباي" في 1942/12/8).

وفي حديثه عن ضحايا الإبادة الجماعية قال: "لم يشاؤوا الاستماع إلينا. بأمواتهم عرقلوا الحكم الصهيوني" (1942/1/8)..."رؤساء الوكالة اليهودية يتفقون على اختيار الأقلية الممكن إنقاذها يجب ان يتم وفقًا لحاجات المشروع الصهيوني في فلسطين".

هذا التعاون بين الصهاينة وهتلر استمر حتى نهاية الحرب: في نيسان/أبريل 1944 اقترح آيخمان على المبعوث الصهيوني رودولف

كاستنر مبادلة مليون يهودي بـ 10 آلاف شاحنة تستخدم حصريًا على الجبهة الروسية. ودعم بن غوريون وموشي شاريت (شرتوك) هذا العرض. واتهمَ كاستنر أيضًا بالشهادة لصالح شريكه النازي بيخر، وبأنه فاوض، بالاتفاق مع القادة الصهاينة (بينهم من كانوا وزراء أثناء محاكمته) مع آيخمان حول ترحيل 1684 يهودياً الى فلسطين يفيدون في بناء دولة إسرائيل المقبلة، مقابل إقناعه 460 ألف يهودي هنغاري بأن العملية مجرد ترحيل وليست إرسالاً الى معتقل أوشفيتز.

وأظهر القاضي هاليفي أنَّ كلَّ هذه الجرائم ارتكبها بالاتفاق مع الوكالة اليهودية والمؤتمر اليهودي العالمي. وكان القاضي حازماً: "لم يكن في شهادة كاستنر حقيقة ولا نيّة حسنة.

وهو كذب عمداً في شهادته أمام المحكمة عندما نفى أنه تدخل لصالح بيخر، كما أخفى واقعة مهمة: تمت مساعيه لصالح بيخر باسم الوكالة اليهودية ومؤتمر اليهود العالمي. ومن الواضح ان توصيات كاستنر لم تتم باسمه الشخصي بل كذلك باسم الوكالة اليهودية والمؤتمر اليهودي العالمي... ولهذا السبب اطلق الحلفاء سراح بيخر".

بعد المحاكمة، اهتز الرأي العام الاسرائيلي ("هآرتز" 1955/7/14) لقول الدكتور موشي كيرين: "يجب أن يتهم كاستنر بالتعاون مع النازيين".

لكن الصحيفة المسائية "يديعوت أحرنوت" (1955/6/23) شرحت أسباب عدم حصول ذلك: "إذا حوكم كاستنر، تصبح الحكومة بكاملها عرضة للانهيار امام الامة نتيجة لما ستكشفه هذه المحاكمة".

والمعرَّض للكشف أن كاستنر لم يتصرف لوحده، بل بالاتفاق مع قادة صهاينة آخرين كانوا أثناء المحاكمة أعضاء في الحكومة.

وكان إخفاء كاستنر هو الطريقة الوحيدة الكفيلة بعدم وقوع الفضيحة.

هكذا اغتيل على درج قصر العدل. ونالت الحكومة الاسرائيلية من المحكمة العليا قراراً بتبرئته.

ج- الانتقاء الصهيوني

خلال محاكمة آيخمان في القدس، وعندما استعيد دور كاستنر، قال النائب العام حاييم كوهين للقضاة: "اذا لم يتفق ذلك مع فلسفتكم، يمكنكم انتقاد كاستنر. كان دائمًا من تقليدنا الصهيوني اختيار نخبة لتنظيم الهجرة الى فلسطين. ولم يفعل كاستنر سوى ذلك". وكوهين تذرع بعقيدة ثابتة في الحركة الصهيونية: الهدف ليس إنقاذ اليهود بل بناء دولة يهودية قوية.

وأكد ذلك البروفسور ليبوفيتز في رده على سؤال: أتقبلون بحُكْم أن التجمع اليهودي في فلسطين قبل إعلان دولة اسرائيل لم يقم بما يكفي لإنقاذ يهود أوروبا اثناء المجزرة، قال: "لم يفعل شيئا البتة، ولا اليهودية الاميركية".

هدف الصهاينة الاساسي إذاً لم يكن إنقاذ حياة اليهود بل خلق دولة يهودية في فلسطين، قال أول رئيس لها (بن غوريون) في 1938/12/7 أمام القادة الصهاينة في حزب العمل: "لو عرفت أنْ كان يمكن إنقاذ كل اطفال ألمانيا عبر نقلهم الى إنكلترا، ونصفهم فقط الى أرض إسرائيل، لاخترت الحل الثاني، إذ اهتمامنا لا بحياة هؤلاء الاطفال فحسب بل بتاريخ شعب إسرائيل". (**السياسة الصهيونية ومصير اليهودية الأوروبية**).

وبالفعل، رغم مجازر هتلر والدوافع الدينية، لم تحقق الصهيونية هدفها بجمع كل يهود العالم في فلسطين التي لم يهاجر إليها سوى 16٪ فقط من اليهود في أوروبا التي سيطر عليها النازيون، في حين 78٪ اختاروا الاتحاد السوفياتي و6٪ اختاروا البلدان الغربية.

لم يكن هذا الاستخفاف خاصاً ببن غوريون وحده، بل كذلك بكل القادة الصهاينة في الوكالة اليهوديةَ ومجالس يهود فلسطين. وبقي

أمر اللاجئين الذين لم يكونوا صهاينة ولا قادرين على المساعدة في بناء مجتمع جديد في فلسطين. "وحده الله يعلم كيف تستطيع أرض إسرائيل الصغيرة والفقيرة استيعاب هذا النهر البشري، والخروج بهيكلية اجتماعية سليمة" كما كتب حاييم وايزمان (**رسائل وأوراق وايزمان** 1935/12/1).

شكت جمعية المستوطنين الألمان أن ممثلي الوكالة اليهودية يمنحون عجزةً شهاداتِ هجرة "القوى البشرية الواصلة من ألمانيا هي من سيئ الى أسوأ" كما كشفت الجمعية بعد نحو عام من وصول الحكومةً النازية. "ليست لديهم الرغبة ولا القدرة على العمل، وهم يحتاجون الى مساعدة اجتماعية" (1933/12/29). وبعد عام أرسلت الجمعية الى برلين لائحة بأسماء من لم تجدهم مؤهلين للمجيء الى فلسطين (1934/3/28).

هنريتا زولد (مسؤولة قسم العمل الاجتماعي في الوكالة اليهودية) اعترضت كذلك على وجود مرضى ومحتاجين بين المهاجرين. وكانت تطلب، من وقت الى آخر، أن يعاد ترحيل بعض هذه الحالات الى ألمانيا النازية كي لا يصبحوا عبئاً على مجالس يهود فلسطين (1934/8/19).

عام 1937، عمدت لجنة التوزيع المشتركة (منظمة اميركية تقدّم مساعداتٍ الى اليهود المحتاجين) الى التفاوض مع السلطات الالمانية لتحرير 120 سجينا يهودياً من معتقل داشو. وكتب أحد رؤساء الوكالة اليهودية الى أحد زملائه: "لا أعرف إذا كان، سياسياً، مستحباً أن يتوجّه كل السجناء المحررين الى فلسطين، فهم في غالبيتهم غير صهاينة، وقد يكون بينهم شيوعيون".

وكان "سيناتور" (العامل لدفع يهود ألمان الى فلسطين) نبّه مكتب الوكالة اليهودية في برلين الى ضرورة تحسين نوعية "القوى البشرية" المرسَلة، وإلاّ قلّصت الوكالة عدد التراخيص المخصصة للرأسماليين من اليهود الألمان.

هكذا تقرر (عام 1935) أن ينال المرشحون ممن تجاوزوا 35 عاماً شهادات هجرة "شرط ألا يكون لديهم ما يشكل عبئاً على البلد"، أي أن يكون لهم مهنة. "وكل من يتعاطى التجارة أو أي نشاط مشابه لا ينال إقرارًا خطيًا، الا اذا كان صهيونيًا عريقًا".

وشرح اسحق غرونابوم "في فترات الخصب، يمكن استيعاب هذه الأعداد. أما في فترات القحط والبطالة فستتسبب لنا بمشكلات كثيرة. يجب أن نحصل على إذن لاختيار اللاجئين الذين يستحقون العناء، مع الإجازة لنا باستنساب عدم قبولهم جميعهم".

اليهود الالمان الذين كانوا ينالون تراخيص للهجرة كـ"مجرد لاجئين" كانوا "أعداداً غير مرغوب بها"، لدى إلياهو دوبكن (عضو اللجنة التنفيذية في الوكالة اليهودية). وهو كتب الى احد زملائه: "افهم جيدًا الوضع الخاص للمؤسسات وراء البحار، والمهتمة باللاجئين الالمان، لكني أريدكم أن توافقوني على أخذ القضية لا من وجهة نظر بشرية فحسب بل من حيث حاجات البلد. لذا يجب المجيء باللاجئين الذين يلبون هذه الحاجات".

وقد وافق المسؤولين عن المهاجرين اليهود الالمان في فلسطين على ذلك. وكتب أحدهم الى زميلٍ له فأفاد: "برأيي، 90٪ منهم غير نافعين هنا".

وفي مذكرة لجنة الإنقاذ في الوكالة اليهودية (1943): "هل علينا مساعدة كل من يحتاج،أياً تكن خصائص كل منهم؟ أم نأخذ في الاعتبار الطابع القومي الصهيوني فننقذ أولاً من يفيدون أرض اسرائيل واليهودية؟ قد يكون من الاجرام طرح السؤال بهذا الشكل، ولكن، إذا بين 50 ألفاً وجدنا 10 آلاف يستطيعون المساهمة في بناء البلد وإحياء القومية، أو إنقاذ مليون يهودي سيشكلون لنا حملاً أو ثقلاً غيرَ مُجْدٍ، فلننقذ 10 آلاف رغم نداءات المليون الذين نرفض تسلمهم"..."علينا إنقاذ الشباب المجدي، وخاصة من خضعوا للتدريب، والقادرين روحياً على رفع شأن الصهيونية. يجب إنقاذ القادة الصهاينة المستحقين أن

تعترف لهم الحركة بصنيعهم"... "إن عمليةً إنسانيةً بحتةً كإنقاذ اليهود الالمان، تؤذي الأهداف الصهيونية، خاصة إذا كانت الفرص محدودة وتتسبب بكارثة كبيرة. نتحرك لصالح اليهود الألمان طالما يشكلون فائدة لنا ويأتون مع أموالهم. اللاجئون الواصلون حالياً لا يحملون هذه الفائدة كونهم يصلون أيديهم فارغة، ولا يملكون ما يقدمونه الى مجالس يهود فلسطين، ولديهم ما لدى قسم كبير من اليهود الألمان: بُعدٌ تام، وأحياناً عداء لأرض إسرائيل، سلوك تحقيري تجاه كل ما هو يهودي وعبري"...

"من وصلوا من طهران يظهرون كذلك أي كارثة تسببها هجرة غير منظّمة وغير انتقائية، إذ مع الرواد والقادة الصهاينة تصل مجموعات لا رابط بينها وبين الصهيونية، بل هي مجردة كليًا من أي ارتباط قومي". (تقرير أبوليناري هارتغلاس: **تعليق على المساعدة والانقاذ**).

ويرى اسحق غرونباوم أن حاجات مجالس يهود فلسطين كانت اولوية: "الصهيونية قبل كل شيء".

وهذا التعصب أثّر في تصرف البعثة الصهيونية الى مؤتمر إيفيان (تموز/يوليو1938) حين اجتمعت 31 دولة لمناقشة كيفية استيعاب اللاجئين من ألمانيا النازية، وفرضت البعثة حلاً وحيداً: قبول 200 ألف يهودي في فلسطين.

أعتذر لاستشهادات طويلة كهذه، لكنها في صميم هذه المحاكمة، إذ إن بن غوريون نفسه في لقاء مع مجلة "تايمز" قال ما يقوله مُتّهِميَّ اليوم: "عندما يقال "صهاينة" يُقصَد "يهود" أيضاً".

مجرد استعادة هذه النصوص تظهر كل الفرق بين اليهودية (كديانة أحترمها) والصهيونية (كسياسية قومية واستعمارية أُحاربها على غرار كل القوميات الاخرى).

إضافة الى ذلك تظهر هذه النصوص غشّ مَن يرفعون اليوم جثث ضحايا لم يريدوا إنقاذهم.

في كل هذا، أين **القدح** الذي قلته ضد القادة الصهاينة؟

إلا ...

إلاّ إذا اعتبرنا فضحَ الأعمال الشائنة من باب القدح.

د - من احتقار الضحايا الى تقديسهم

لم يكن الصهاينة يتخلون عن ضحاياهم بل كانوا كذلك يحتقرونهم.

وذات يوم من حزيران/يونيو 1989، قال الكاتب يهودي هندل في التلفزيون الاسرائيلي: "لنقل ولو بقسوة: كان في البلاد عِرقان. من كانوا يعتقدون أنهم آلهة، ولهم شرفٌ مميز أن يكونوا وُلِدوا في ديغانيا أو في حيّ بوروشوف. أنا نشأتُ في حيّ عمالي قرب حيفا، حيث كان يعيش عرقٌ أقل شأناً: أناس نعتبرهم أقل مستوى، مصابون بتشويه جسدي، ذي حدبة في الظهر، وكانوا وصلوا بعد الحرب. وتعلمت في المدرسة أن الأبشع ليس عملية الإبعاد بل اليهودي الذي يأتي من خلالها".

ومن هنا قول ليا غولدبرغ "هؤلاء الأشخاص بشعون، فقراء معنويًا، مريبون ويصعب حبهم" أثناء اجتماع كتّاب دعا إليه بن غوريون، الذي كان يرى أنّ اضطهاد اليهود في بلدان كان يسيطر عليها هتلر، تمّ لأنهم لم يسمعوا في الوقت المناسب نداءه إياهم باللجوء الى فلسطين.

وتجرأ عضو في الوكالة اليهودية على القول إن جدارًا غريبًا ارتفع بين الناجين من المجزرة والاسرائيليين بالولادة. وهو ما سماه بن غوريون **حاجز دم وصمت، قلق ووحدة.**

هكذا ندرك دافع جوزف بروسكوير (قاضٍ في نيويورك، ورئيس شرف في المؤتمر اليهودي الاميركي) في رسالته الى بن غوريون (1961/5/3) احتجاجا على ادعاء بن غوريون التحدث باسم اليهودية العالمية، ورسالة المجلس الاميركي لليهودية الى كريستيان هِرْتِر بـ"رفض حق الحكومة الاسرائيلية في التحدث باسم جميع اليهود".

يومها أجاب بن غوريون بأنه "يهودي لا يكترث الى ما يرويه غير اليهود" (رسالته الى اسحق كوهين في 1961/4/11).

فرايدنسون، في كتابه **طريقٌ في الرماد**، قال: "بدل أن ينساقوا الى الذبح كالخراف، لِماذا لم يقاوموا"؟ ولكنه أصرّ من جهة أخرى على الدفاع عنهم.

إن الـ"بن غوريونيين" الذين كان يحميهم في فلسطين إنكليز يكرهونهم، لَم يكونوا يدركون ماذا تكلف المقاومة داخل المعتقل. نحن الذين عشناها، منفيين الى دْجلْفا (الجزائر) في الصحارى (1941، قبل بداية النفي الى ألمانيا) عندما أَردنا الترحيب بوصول منفيين آخرين من الفرق العالميةِ منشدين: **هلموا الى صدارة الحياة** أمر قائد المعتقل بإعدامنا رمياً بالرصاص. ونحن ندين اليوم بحياتنا الى امتناع الجنود المسلمين عن إطلاق النار علينا، فعندهم أن رجلاً مسلحًا لا يطلق النار على رجل غير مسلح.

وبين ما تعلمناه من مقاومتنا، العقيمة انما الرمزية: إذا لم يمكننا الدفاع دائمًا عن حياتنا، يمكننا الدفاع عن شرفنا. لذا لم نميّز يومًا في معتقلنا بين يهودي (مثل برنارد لوكاش) وغير يهودي، واستطعنا أن نتفهم أخوياً وضع رفاقنا في المعتقلات الالمانية، يهوداً كانوا أم غير يهود.

بعد حرب الأيام الستة، تبدلت فجأةً تصرفات القادة الصهاينة وتحوّل احتقار ضحايا الدياسبورا الى عكسه مع المبالغة نفسها: لم يكن المبعَدون جميعهم أبطالاً، لكنهم جميعهم كانوا ضحايا.

مرة جديدة برز تفرّد الضحايا اليهود وكأن موت الآخرين لا يخضع لهذا القانون.

خلال محاكمتي والحملة ضدي وضد أخي الأب بيار، كتب فرنسيس مارتِنز من جامعة لوفان الكاثوليكية ("لوموند"1996/5/21): "ليس صدفة ان غالبًا ما تتسرّب كلمة "أسطورة" من اقلامهم. ومن

فرضية أنّ الأسْطَرَة - بتحقير معتقل أوشفيتز - هي أساس الرفض، يجب ان نزن كلماتنا. الحديث عن "هولوكوست" أو عن "شهداء" في حال الإبادة، يظل ناقصاً كذكر "التفصيل"، فليس في الأمر شهداء بل ضحايا. الشهداء يموتون - وأحيانًا يختارون الموت - من أجل قضية ما. أما الضحايا فكلّ ذنبهم أنهم صادفوا الجلاد.

في كلمة "هولوكوست" (وردت عند مورياك منذ 1958) استعارة ذات غنائية مضللة. فـ"الهولوكوست"، في مفهوم التضحية عند العبريين، هو الحرق التام لحيوان نقي غير ملطّخ. وفي تطبيق هذا المنطق على الابادة الجماعية، يصبح هتلر متماهياً مع كبير كهنة اسرائيل، ويخفي حقيقة الإبادة الفائضة بلغة منمّقة ذات خيال جامح.

إن تقديس المجزرة (المصوَّرة أحياناً وجهاً آخر شيطانياً لأسطورة "الاختيار") ليس أفضل من استخدامها الاعلامي.

في طريق وحدانية العذاب اليهودي، حيث كل شيء يجري وكأن عذاب الآخرين غير موجود (إذ ليس، كعذاب اليهود، مكتوبًا في تدبير الله الابدي) تنقلب كلياً نزعة الصهاينة حتى تصبح كاريكاتورية كما في قول إيلي ويزل: "لماذا علينا التفكير خجلين بالهولوكوست؟ لماذا لا نستعيده كفصلٍ عظيم من تاريخنا الأبدي؟ اليوم، كل شيء يدور في فلك تجربة الهولوكوست. فلماذا نواجه الأمر بغموض؟ على التربويين والفلاسفة اليهود إعادة فتح الواقعة كمصدر فخر، واستعادتها في تاريخنا".

هذا التغيير في الاتجاه الصهيوني حصل لأسباب سياسية (حرب الأيام الستة) ولإعادة إدخال تلك الكارثة في الاستمرارية التيولوجية لتاريخ الشعب المختار.

3- التناقض الأساسي بين الصهيونية وسياستها الإرهابية

هذا التناقض لدى الصهيونية تزامن وولادة الدولة الاسرائيلية: فبن غوريون، المعتبِر الدين اليهودي "كارثة الشعب التاريخية" (استشهاد

ذكره عن لسانه البروفسور ليبوزيتس خلال حواراته معه في كتابه **إسرائيل واليهودية**) أقام عام 1948 تسوية مع اليهود التقليديين. ومع أنه كان يفضل فصل الدين عن الدولة، فرض التعليم الديني في المدارس (لتركيز فكرة **أرض الميعاد**)، ووافق ان تأتي قوانين الزواج والطلاق والدفن من التلمود.

ففي "قانون قضاء المحاكم الحاخامية" (قانون 5713 – 1953) ورد:

"– المادة الأولى: كل ما يخصّ زواج أو طلاق اليهود في إسرائيل، محلين أو مقيمين، هو حصريًا من اختصاص المحاكم الحاخامية.

– المادة الثانية: تتم زيجات اليهود وطلاقهم في إسرائيل بموجب القانون الذي شرّعته التوراة".

لذا استطاع شلومو آفينيري القول: "أن يكون المرء اليوم يهودياً يعني أن يكون مرتبطًا باسرائيل" ("صنع الصهيونية الحديثة" 1981).

من نتائج هذا التقديس أنّ الهولوكوست أصبح حجة أساسية بحسب فكرة خلق دولة اسرائيل وسياستها.

اولاً لأن الرب إراد ذلك، ثم لأن هتلر (كما نبوخذنصّر سابقاً) كان الأداة لمعاقبة شعبه والتكفير عنه.

وهذا ما يبرر لإسرائيل اتخاذها مكاناً فوق كل قانون بشري، وخاصة تجاوُز مقررات الامم المتحدة وأحكامها.

منذ قرار تقسيم فلسطين، أعلن بن غوريون: "تعتبر دولة اسرائيل أن قرار الامم المتحدة في 1947/11/29 باطلٌ ولا مفعول شرعياً له". ("نيويورك تايمز" 1953/12/6) وبدأ بن غوريون نشاطه الترحيلي.

ومن نتائج ذاك التقديس أيضاً: ادعاء إسرائيل أن قوانينها متفوقة على قوانين كل الشعوب الاخرى.

والقادة الصهاينة لم يخفوا دور اللوبي الذي شكّلوه. من هنا إعلان بن غوريون: "عندما يهوديٌّ في أميركا أو أفريقيا الجنوبية يقول

"حكومتنا" بين رفاقه اليهود، فهو يقصد حكومة إسرائيل". ("إحياء إسرائيل ومصيرها"- 1954).

هكذا المؤتمر الثالث والعشرون للمنظمة الصهيونية العالمية حدد، على صعيد واجبات اليهود في الخارج، أن "على جميع المنظمات اليهودية في العالم مساعدة الدولة اليهودية في كل ظرف، واجباً غير مشروط، **ولو تعارض ذلك مع سلطات دولهم**. (بن غوريون: **مهمات الصهيونية الحديثة وطابعها**، "جيروزلم بوست" 1952/8/17 و"الوكالة اليهودية" 1951/8/8).

وما يغذي العداء للسامية، هذا المزج بين اليهودية كدين (محترم ككل دين آخر) والصهيونية (كسياسة) المؤمِّن تبعيةً غير مشروطة للدولة الاسرائيلية منصِّبة نفسها إله اسرائيل.

انطلاقاً من هذا التفوق المزيف، باتت مبرَّرَةً جميع الوسائل للوصول الى غاية مقدسة.

أظهرْنا (ما فضحَه أيضاً فتحُ الملفات الإسرائيلية) أن "أرض الميعاد" كانت أرضاً محتلة، طُرِد منها سكانها الأصليون بالحديد والنار (كما في دير ياسين) والتبرير: إتمام الوعد المقدس، ومن يشكك بهذا الوعد يستحق الموت على يد قاتلٍ ذي حق مقدس.

والدليل: في 1948/9/16 أودع الكونت برنادوت الأمم المتحدة تقريراً وصف فيه "النهب الصهيوني الفاحش ودمار القرى"، وخلص الى ضرورة "عودة اللاجئين العرب أصحاب هذه الارض منذ قرون". وفي اليوم التالي تماماً (1948/9/17) اغتيل في القدس (داخل المنطقة التي كان يحتلها الصهاينة). أما قاتله ناتان فريدمان يلين فأُوقِف وحُكم عليه بالسجن خمس سنوات، ثم أُعفي عنه. وعام 1960، انتخب نائبًا في الكنيست.

المصير نفسه لاقاه اللورد موين (Moyne) وزير الدولة البريطاني الذي أعلن (في 1942/6/9) أن اليهود الحاليين "ليسوا متحدرين من

العبريين القدماء" وليس لهم "مطلب شرعي على الأرض المقدسة"، فاغتاله في القاهرة (1944/11/6) عضوان في منظمةٍ إرهابية (برئاسة إسحق شامير، وفي 1975/7/2 كشفت جريدة **إيفنِنغ ستار** في أوكلند عن وجود جثتي القاتلين في مقبرة الأبطال في القدس.

وكذلك باروخ غولدشتاين (قاتل الـ29 عربياً أثناء ادائهم الصلاة داخل الحرم الابراهيمي) كرّمته مستوطنات كريات أربات في الخليل، ودُفِن في ضريحٍ فخمٍ، عليه عبارة "الى البطل باروخ غولدشتاين"، ويأتيه حجاجٌ بباقاتِ زهرٍ، بدون أيّ اعتراض من الحكومة.

وهو هذا تماماً ما حصل للرئيس رابين: عقاباً له على محاولته إرساء السلام باتفاق يعيد الى فلسطين أراضيَ مذكورةً في الكتاب المقدس، اغتاله قاتل "ذو حق مقدس"، يزوره اليوم في السجن متشددون بالزهور والهدايا. هكذا أصبح القتل ممارسة شائعة، بل مقدسة، في السياسة الاسرائيلية المتذرِّعةِ بأمن المستوطنات والدولة.

حجج **الأمن** هذه، تشمل، كما كان يفعل هتلر، **المقاومة والإرهاب**. فمنذ قيام ثورة الحجارة ("الانتفاضة" - 1987/12/9) سقط 1116 فلسطينياً برصاص الجيش أو الشرطة أو المستوطنين، كما الآتي: 626 عام 1988 و 1989، 134 عام 1990، 93 عام 1991، 108 عام 1992، و155 من 1993/1/1 حتى نهاية ايلول/سبتمبر. وبين الضحايا 233 دون السابعة عشرة (عن تحقيق ميداني أجرته جمعية "بيت السلام" الاسرائيلية لحقوق الانسان).

مصادر عسكرية أحصت نحو 20 ألف فلسطيني مصابين، والـ"أونروا" أحصت نحو90 ألفاً. بالمقابل: 33 جندياً إسرائيلياً قتلوا منذ كانون الأول/ديسمبر 1987: 4 عام 1988، 4 عام 1989، واحد عام 1991، 11 عام 1992، و11 عام 1993.

وسقط 40 مدنياً في جميع مستوطنات الأراضي المحتلة، بحسب كشف أعده الجيش.

وبحسب المنظمات الانسانية، 15 ألف فلسطيني موجودون منذ 1993 في السجون وفي مراكز اعتقال الجيش.

12 فلسطينيا قتلوا في السجون الاسرائيلية منذ بدء الانتفاضة، وبعضهم في ظروف لا تزال غامضة. وتشير جمعية "بيتٍ السلام" الانسانية الى أن 20 ألف معتقل على الاقل يعذّبون سنوياً في مراكز الاعتقال العسكرية خلال الاستجوابات ("لوموند" 1993/9/12).

جاء في المجلة الشهرية الإسرائيلية "ميغار" (عدد تشرين الثاني/نوفمبر 1982): "عن معطيات وزير الداخلية يوسف بورغ أن عشرة يهودٍ قتلوا عام 1988 على يد إرهابيين وثمانية عام 1982. في المقابل قتلنا نحو ألف إرهابي عام 1982 وتسببنا بموت آلاف السكان في بلدٍ معادٍ (لبنان). إذاً، مقابل 18 يهودياً قضوا، قتلنا آلاف المشركين. وهذا نجاحٌ للصهيونية باهرٌ بل متفوق (عن ناحوم شومسكي في كتابه **المثلث المشؤوم**).

اغتيالات قادة منظمة التحرير الفلسطينية لا تحصى، بينها: اغتيال سعيد همام (لندن 1978)، نعيم كيدر (بروكسل1981)، السرطاوي (البرتغال خلال المؤتمر الاشتراكي الدولي عام 1983)، وغيرهم كثيرون، وصولاً الى المحاولة الفاشلة للمخابرات الاسرائيلية في الأردن لقتل زعيم حماس.

ميليشيا بيتار المسلحة (رخّص لها هتلر من 1933 الى 1938) تابعت نشاطها، فارتدت البزة والعلَم مع القميص الداكن، وأصدرت نشرتها، وأعطت رخص هجرة الى فلسطين (توم سيغيف: **المليون السابع**). وهي تتابع عدوانها في فرنسا اليوم: عنصران منها حوكما (الثلثاء 1998/2/10) لضربهما بعصا كرة القاعدة (بيسبول) أشخاصًا سبعينيين في معظمهم، كانوا يحضرون مؤتمراً عن التعاون مع هتلر أيام فيشي ("لوموند" 1998/2/12)، وهو حادث أعلنت حتى "هآرتز" عنصريته.

في إسرائيل، وفي مناسبة العيد الخمسين لتأسيس الدولة، عرض التلفزيون مسلسل "القيامة" في 22 حلقة، مستعيداً كل تاريخ إسرائيل. إحدى الحلقات تناولت الإرهاب الفلسطيني، وحفاظا على الموضوعية أعطي الكلام للاجئين عرب تذكروا المجازر التي ارتكبها الجيش الاسرائيلي بين 1967 و 1982. وكان عنوان الحلقة "بلادي" (اسم النشيد الوطني الفلسطيني). وكانت الفضيحة عند المتشددين أن الكلام أعطي للأعداء، وأنهم لا يوافقون على أي حوار. كما أظهرت صورٌ من الارشيف مخيماتِ اللاجئين فيما كانت غولدا مائير تنفي دوما وجود الفلسطينيين.

حلقة أخرى بعنوان "إسرائيل اخرى" عَرضَت صعوبة اندماج يهود سفَرديين (طوائف يهودية في المتوسط) جاؤوا من البلاد العربية في السبعينات الى بلد أسسه أشكنازيون جاؤوا من اوروبا. وفرض وزير الإعلام ليمور ليرنا الرقابة من دون أن يشاهد الفيلم، إنما بضغط من آرييل شارون. لكن التلفزيون رفض الرقابة.

هكذا انهالت على المخرجة (رونيت وايس بيركوفيتز) تهديدات بالقتل المجهولة المصدر، منها: "سنحرقكِ أيتها اليسارية، المناصرة للعرب". وهو الردّ الوحيد الذي يملكه تلامذة "الرجال السود" على كل محاولة تفكير نقدية (مقال كريستوف بولتانسكي في "ليبيراسيون" 1998/4/5 ومقال مراسل "لوموند" في القدس 1998/4/6).

تماماً كما تلقيت تهديدات بالقتل غداة صدور كتابي، وبعد الهجوم الإعلامي العشوائي الذي استهدفني، وصدور الحُكم الأول: انقضّت ميليشيات بيتار بغزوة إرهابية على قصر العدل ضد ستة صحافيين أُدخِل اثنان منهم الى مستشفى أوتيل ديو.

أما ادعاء الحفاظ على أمن الحدود، فمن الطريف، إن لم يكن من المحزن، التذكير به في بلدٍ يحتل حدود كل جيرانه، في لبنان كما في الجولان.

أيكون قدحاً فضحُ هذه السياسة القاتلة؟ نعم، إذا اعتبرنا قدحاً

الاعتراض على الاعمال الناشئة.

إذن ما هو القدح؟ التحدث عن الأسطورة واللوبي؟

الجواب عن ذلك سهل.

أ) تدمير الأساطير الصهيونية

"الأساطير" (كلمةٌ طالما أغضبت مُتَّهِمِيَّ) أصبحت أوضح منذ المحاكمة التي نستأنفها اليوم. فالبروفسور زيـِف شْتِرْنْهلّ (أستاذ العلوم السياسية في جامعة القدس العبرية وصاحب كتاب **الأساطير المؤسِّسة للقومية الإسرائيلية** الصادر لدى منشورات برنستون 1997) كتب في "لوموند ديبلوماتيك" (أيار/مايو 1998): "لم تنتشر كاليوم إعادة طرح أساطيرنا المؤسسة".

لا أدعي فضلي في ذلك. فالحركة بدأت قبل كتابي وفي إسرائيل نفسها. لكني فخور بمشاركتي فيها، واستمراري بالمشاركة في حركة التحرر الفكري.

ففي فرنسا، صدر الكتاب النقديّ **تاريخ إسرائيل الجديد** وضعه إيان غْرايلْشْهامِر (أستاذ العلوم السياسية في جامعة بار ايلان). والأب بيار أول من لفتني إليه قائلاً: "أسرع الى قراءته. إنه يثبّت افكارنا". وقرأته، فلاحظتُ أنه يؤكد جميع تحليلاتي، حتى بأبعد من الجزء الذي أعالج ضمنه في كتابي مشكلات تاريخية (علماً أنني لم أهتمّ باستخدام التاريخ في تبرير السياسة).

والبروفسور غرايلْشْهامِر، لينشر عملاً جريئًا الى هذا الحدّ، كان يحتاج الى غطاء للتحدث عن عدائي الجامح للسامية في حين أتحدى أياً كان ان يجد في كتابي سطراً واحداً استخدمت فيه كلمة "يهودي" بمعنى تحقيري. لكني أشكره على إعطائه تأكيداً علمياً للجزء التاريخي من كتابي وعلى مساهمته الدامغة في كشف النقاب عن هذه الحقيقة.

فرنسواز سميث (عميدة سابقة لدى الكلية البروتستانتية في باريس) ساهمت أيضًا في الشرح عبر كتابها **الأساطير غير الشرعية**. فبعدما

سلّمتها كتـابي، وضعـت بعـض الإيضاحـات، وكتبـت اليَّ رسـالةً (1996/12/21) قالت فيها: "لا يمكن الطعن بك، وكتابُك مسرودٌ بهـذه الطريقة، وحتى بدون نتنياهو".

في الإطار اللاهوتي نفسه كـان أندريـه لـودوز André Laudouze (حول كتابي: **قضية إسرائيل: الصهيونية السياسية** 1983) كتب: "أمـا بالنسبة الى الادعـاء التوراتـي، ففكـرة "الشـعب المختـار" هـي تاريخيـاً طفوليـة، وسياسيًا قاتلـة، ولاهوتيـاً لا تحتمـل، إذ إن تفسـير "مختـارين" بـ"مستبعدين"، تؤدي بكل سياسة مبنيـة علـى هـذه الاسـطورة الى نفـي الآخر ورفضه (وهو استند الى القراءة الصهيونية للكتـاب المقـدس لا الى روح الكتابة الحقيقة).

من وجهة نظر يهودية، ذكـر الحاخـام إلمر برغـر (رئيـس المجلس الامـيركي لليهوديـة) خـلال محاضرة ألقاهـا في جامعـة ليـدن (هولنـدا) وصدرت في نيويورك (1968/3/20) بعنوان "النبوءة، الصهيونيـة، ودولـة اسرائيل" (قدّم لها أرنولد توينبي) أن "أرض صهيون لا تكون مقدسة إلا اذا عمّمت فيها شريعة الرب، وهذا لا لنقول إن كـل شـريعة تـأتي مـن صهيون هي مقدسة".

وبفضحـه هـذا اللاهـوت العـاهر، خلـص الى أن "دولـة اسـرائيل الحالية، بسبب مفهومها التوتاليتاري الذي يجعل الدولة هي كـل شـيء، لا يحق لها ادعاء تحقيق الزمن المسيحاني".

وهو بهذا يستعيد كلمات النبي إرميـا ضـد الملـك الـذي لم يحـترم عهد الميثاق: "هكذا تقولـون لصدقيّـا: هكـذا قـال الـرب إلـه إسـرائيل: هاأنذا أرد آلات الحـرب الـتي بـأيديكم والـتي بهـا تحـاربون ملـك بـابل والكلدانيين المضيِّقين عليكم من خارج السور، وأجمعهم في وسـط هـذه المدينة، وأحاربكم أنا بيدٍ مبسوطةٍ وذراعٍ قوية وبغضب وحنقٍ وسخط عظيم" (سفر إرميا: 21/4-5).

وأضاف الحاخام برغر: "النقطـة الأهـم أن إسـرائيل ليسـت فـوق القوانين بحجة أنها تتصرف كأداة لقانون رب الانسان الأعلى".

كل الأساطير التي اصطنعها القادة الصهاينة الاسرائيليون لتبرير سياستهم واغتصاباتهم، تخفي الحقائق التاريخية واللاهوتية بتنظيم إيديولوجي منظم إعلامياً.

في مقال بعنوان **من الميثولوجيا الى التاريخ**، ورد عن كتاب زيْفْ شْترنْهِل قوله: "إن الاستمرارية التاريخية الدينية شكّلت عموداً رَكناً للصهيونية، بقراءة التوراة عنواناً لملكية الأرض"، كما ورد في كتاب "جذور إسرائيل".

من هنا، ولدت بعض الأساطير المؤسِّسة: "أرض بلا شعب لشعبٍ بلا أرض"، وهذه **دولة مثالية** جديدة من عدالة وجمال وحروب "دفاعية أُجريت بنقاء السلاح".

منذ عشرة أعوام عمد الباحثون الى تدمير الأساطير، وأبرزهم: بيني موريس في كتابه **ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين**، طوم سيغيف في كتابَيه "الإسرائيليون الأُوَل" و"المليون السابع"، إيلان باب Pappe، آفي شْلايم، وسواهم ممن يرون أن الأمر لا يتعلق بتاريخ جديد، بل بالتاريخ، إذ قبله لم تكن إلا الأساطير، كما يقول موريس.

أما الأسطورة الأكثر جموحاً: "أرض بلا شعب لشعبٍ بلا أرض" (منها استمدت غولدا مَئير قولها إن الفلسطينيين غير موجودين وإن الصهاينة وصلوا الى صحراء) فكذبة فاضحة لم تستطع مَئير نفسها مجابهتها أو تجاهل شهادة الصهيوني الكبير آشر غينسبرغ (اسمه المستعار آحاد حام أي واحد من الشعب) حين قال: "اعتدنا الاعتقاد، في الخارج، أن أرض اسرائيل شبه صحراوية، صحراء من دون زراعة، ويمكن كل من يريد أخذ أراض، أن يأتي الى هنا ويأخذ قدر ما يبتغي. عملياً، لم نجد شيئاً من هذا، فعلى امتداد البلاد يصعب وجود حقول غير مزروعة، إلاّ حقول رمل وجبال وعرة لا تنمو فيها أشجار مثمرة إلاّ بعد حراثة قاسية وتنظيف شامل واستصلاح".

أسطورة أخرى: الرحيل الطوعي للفلسطينيين الأصليين، وأظهر بيني موريس عند فتحه الوثائق أنّ الأمر كان مطاردة قسرية دامية

للسكان. من هنا رفْض مقولة **خطيئة إسرائيل الاصلية** التي يتشدّق بها مؤرخو إسرائيل اليوم. ففي "يديعوت أحرونوت" (1972/4/29) شهادة من Meir Pail عن مجزرة دير ياسين، أكدها شاهد عيان (مندوب الصليب الأحمر جاك دو رينييه) أن الأسطورة بل الكذبة التي خلقها بن غوريون عاشت نصف قرن على تضليل شائعات الإعلام الصهيوني، حتى كشف حقيقتها بيني موريس عند فتحه الوثائق، وجَرُؤَ على قولها في كتابه (صدر في الولايات المتحدة عن منشورات جامعة كمبردج 1987) مما سبّب له في إسرائيل طرده من منصبه في الجامعة.

وعن **يوميات** جوزف ويتز (مدير الصندوق الوطني اليهودي) أنه أمر عام 1947 بـ"طرد اكبر عدد من العرب من مناطقنا... أرسلت لائحة بالقرى العربية التي أرى وجوب تنظيفها من أجل تجانس المناطق اليهودية".

إن حروب دولة اسرائيل الاحتياطية (حرب السويس عام 1956 تكافلاً مع فرنسا وانكلترا، حرب الأيام الستة عام 1967 التي تمّ فيها تدمير الطيران المصري كاملاً في 1967/6/5 دون اعلان الحرب –كما فعل اليابان عندما أغرقوا الأسطول الأميركي في "بيرل هاربر" –، اجتياح لبنان عام 1982) جميعها جرائم ضد الإنسانية تسببت بموت آلاف الضحايا، نساءً، وأطفالاً وشيوخاً، وتم تغليفها بأسطورة: "لم يكن لنا خيار آخر".

وحرب الأيام الستة مثالٌ نموذجي جعل منه الصهاينة الإسرائيليون عنوان فخار وعظمة. هنا أيضًا لم يكن أحد يشك، وخصوصا القادة الاسرائيليون أن حياة إسرائيل لم تكن أبدًا في خطر.

في 1967/6/12 أعلن رئيس الوزراء ليفي أشكول في الكنيست أن "وجود الدولة الاسرائيلية مرتبط بخيط، وإنما زالت نهائيا آمال القادة العرب في إبادة إسرائيل".

و لم يصدّق أيُّ قائدٍ إسرائيلي هذه الأكذوبة الساذجة التي أُطلقت للاستهلاك الخارجي والداخلي. وقام وزير إسرائيلي سابق (موردخاي

بنتوف) فكشف ذلك: "كل هذه الرواية المختَلَقة عن خطر الإبادة اخترعت وضُخمت لتبرير ضمّ أراضٍ عربية جديدة". وهذا ما أكده، عسكرياً، الجنرال عازر وايزمان: "لم يكن هناك أيُّ خطر إبادة" والجنرال Matityahu Peled: "نظرية خطر الإبادة الجماعية المعلّق فوق رؤوسنا في حزيران/يونيو 1967، وأن إسرائيل تحارب من أجل البقاء، كانت خدعةً ولدت ونمت بعد الحرب".

وكتب الجنرال رابين: "لا أعتقد أن عبد الناصر كان ينوي شن الحرب. فالفرقتان اللتان أرسلهما الى سيناء في 14 أيار/مايو لم تكونا تكفيان لشنّ هجوم على إسرائيل. هو كان يعلم ذلك ونحن أيضًا".

العدوان والكذب معاً أتاحا لإسرائيل احتلال سيناء. والكذب في كون الممثلين الرسميين للدولة الصهيونية ظلوا يؤكدون بأنهم لا يريدون ضمَّ أراضٍ.

والاغتصاب والغزو انكشفا في أيار/مايو 1997 عند نشر رسالةٍ من موشي دايان أكّدت صحّتها ابنته يائيل (حالياً نائبة في الكنيست) تعلن أن دخول سوريا الحرب كان باستفزازٍ من إسرائيل.

وفي زاوية "بريد القراء" من دورية "الشهادة المسيحية" (1997/6/20) قال بدرو سكارون: "أسطورة صهيونية أخرى تنهار".

البروفسور إيلان غرايلْشامِر كشف أساطير أخرى، بينها أسطورة "ماسادا" وأسطورة الملكية الجماعية للمزارع اليهودية (وهي، برأي البروفسور شترنهل، لا تضم إلا أقلية ضئيلة من يهود فلسطين) والتي تقوم بشكل أساسي على غزو الارض، و75٪ من المال الذي وصل البلاد لتمويلهم مصدره رأسمال خاص". وأضاف: "العهد الذهبي لرواد الصهيونية كان أسطورة في خدمة القومية، تمامًا كأكذوبة المساواة داخل نقابة العمال المركزية، ذاك العملاق الاقتصادي الذي عشية الاستقلال كان يسيطر على 25٪ من الاقتصاد الوطني القومي مع تفاوت كبير في الأجور ("لوموند" الثلثاء 1996/5/21)، ولم يكن مقبولاً في النقابة عمال غير يهود.

أسطورة أخرى: داوود وغوليات الجبـار، لتصوير دولـة إسرائيل داود الصغير في مواجهة العملاق العربي، في حـين كـان كاسحاً تفوّقُ إسرائيل العسـكري منـذ 1948 وكـان جيشـها (الهاغانـا) خـلال حـرب 1948 يضم60 ألف مقاتل تسلحهم بلدان الغرب والشرق في آن واحـد (وخصوصًا تشيكوسلوفاكيا) ليواجهوا نحو 30 ألف جندي عربي كـانوا مزيجاً من فلسطينيي الثورة الكبرى (1936 - 1939) ضد الإنكليز، ومـن أحلاف عربية خليطةٍ تفتقر الى مخطط استراتيجي مشترك.

عنـد اجتيـاح لبنـان عـام 1982 ظهـر الغـش نفسـه. فإعلان تلـك الحرب الجديدة الدفاعية كانت حجتها مشابهة لحجة "ليلـة الكريستال" (في1938/11/7 اغتال شابٌ يهوديٌّ يدعى غْرينْسْبان دبلوماسياً ألمانيـاً في بـاريس، فكـانت تلـك حجـة أول إبـادة جماعيـة نازيـة ضـد اليهـود، وإخراجهـم مـن الحيـاة الاقتصاديـة). وفي لنـدن عـام 1982 تعـرّض دبلوماسي إسرائيلي لاعتداء، سـرعان مـا نسبه القـادة الإسـرائيليون الى منظمـة التحريـر الفلسـطينية فاجتـاحوا لبنـان بحجـة الدفـاع المشـروع. والجريمة كلها كانت... كذبة مختَلَقَة.

وكشفت مارغريت تاتشر في مجلس العموم دليـلَ أن وراءَ الجريمـة عدواً لمنظمة التحرير الفلسـطينية.وبعـد توقيـف الفـاعلين ونتـائج تحقيـق الشـرطة أعلنـت: "في لائحـة الأشـخاص الذيـن كـان ينـوي الفــاعلون اغتيالَهم: المسؤول عن منظمة التحرير في لندن، مما يثبت أن المهاجمين لم يكونوا يتمتعون بدعم المنظمـة. لـذا لا اعتقـد أنّ هجـوم إسرائيل علـى لبنان هو انتقـامٌ للاعتـداء، بـل ذريعـة تحجـج بهـا الاسـرائيليون لتغطيـة عدوانهم". والعدوان، بالفعل، كان مخططاً لـه. ففـي 1948/5/21 كتـب بن غوريون في **يومياته**: "نقطة ضعف الائتـلاف العربـي: لبنـان. الهيمنـة الاسلامية فيه زائفة ويسـهل قلبهـا. يجب قيـام دولـة مسيحية في هـذا البلـد، حدودهـا الجنوبيـة نهـر الليطـاني" (ميخـائيل بـار زوهـار: "بـن غوريون: النبي المسلّح"). وتولى أسلوب تنفيذ ذلك موشـي دايـان في 16 حزيران/يونيو.

عن أساليب خطل أسطورة داوود وغوليات الجبار، قال السفير الفرنسي في بيروت فترتئذ بول مارك هنري في كتابه **بستانيُّو الجحيم**: "إنه تركيز مسلح لا سابق له. في عز الاجتياح حرّك الجيش الاسرائيلي الى لبنان نحو 100 ألف جندي، وأكثر من 1000 مصفحة (إم 60، ميركافا ثقيلة، شيفتين) وعدد مماثل من الراجمات. كانت الأرتال المصفحة مستقلة تدعمها آلاف المركبات المختلفة لتموين الفرق بالأسلحة والذخائر والوقود. وكانت المفارز موصولة بنظام تخابر إلكتروني وصفه الخبراء بالأكثر تطوُّراً في العالم.

هذا الجيش خطط للسيطرة المطلقة على الأرض بدون مقاومة، وكان شبه مسيطر على الجو، فيما البحرية الاسرائيلية سيطرت على البحر. وكونها مجهزة بزوارق سريعة مزودة بأحدث الأسلحة (زوارق شربور) كانت قادرة على منع وصول أي نجدة من الخارج، وحماية عمليات الإنزال، ودعم مرامي نارها الفتاكة أثناء قصفها المدن المحاصرة مثل بيروت والدامور".

عن استخدام هذه القوة، قال راندال في كتابه **حرب الألف عام**: "طبعاً كان الإسرائيليون يفضلون التكنولوجيا الحديثة والقصف المتطور وطائرات ف16 وقنابل التحكم عن بُعد والفوسفور الأبيض والدبابات والقنابل ضد الاشخاص ومدافع زوارقهم، على الأساليب الحِرَفيّة للجنود اللبنانيين. وكان يفتت القلب مشهد المحروقين في جناح أحد مستشفيات بيروت، بعدما أخذ المدفعيون الإسرائيليون المعروفون بدقتهم يوزعون قذائفهم على مؤسسات تعلوها أعلام الصليب الأحمر (وحتى على الشارع الرئيسي حيث لجنة الصليب الاحمر الدولية)، فيما بائسة كانت المستشفيات الميدانية في الطبقات السفلى والمآرب. وعمد الجراحون الى استئصال أعضاء ممزقة بقنابل وقذائف مريعة استخدمها الاسرائيليون".

بقي ذبح فلسطينيي المخيمات. وعن إفادة شاهد عيان (السفير الفرنسي بول مارك هنري نفسه) أنّ "الأمر للجيش الإسرائيلي بدخوله

بيروت الغربية مع الساعات الأولى من فجر الخميس 15 أيلول/سبتمبر تضمَّن أنْ "لن ندخل مخيمات اللاجئين، لأن تمشيط المخيمات وتنظيفها ستتولاهما ميليشيات حزب الكتائب وفصائل الجيش اللبناني". والجيش اللبناني "يمكنه، بناءً على طلبه، الدخول حيثما كان في بيروت".

وفعلاً، بحسب تقرير كاهان، كان دخول ميليشيات الكتائب الى المخيمات تقرر في اتفاق بين وزير الدفاع آريل شارون والجنرال دروري خلال اجتماعهما في الثامنة والنصف عشية الهجوم. ونهار الخميس أحكم الجيش الاسرائيلي الطوق على منطقة المخيمات، ما لاحظناه عينياً ونحن نغادر قصر الصنوبر".

لجنة كاهان (المتساهلة التي كلفت التحقيق في صبرا وشاتيلا) عزَت سبب المجزرة الى إهمال أو جهل للوقائع، وطلبت معاقبة المسؤولين علي ما سنسميه مضطرين *جريمة ضد الانسانية*: إبعاد القائدَين المسؤولَين عنها آريل شارون ورافائيل إيتان.

إبعاد؟ ها هو شارون اليوم وزير الخارجية القوي في حكومة نتنياهو، ولا يقل مركز إيتان شأناً عنه في الوزارة نفسها.

و...أنا هو من قام بـ...**قدح** هذه الأعمال الشائنة.

فترتئذٍ، صرحنا أنا والأب لولون والقس ماتيو ("لوموند" 1982/6/17) أنّ "العدوان على لبنان كان من ضمن منطق الصهيونية السياسية"، وقاضتنا الـ"ليكرا" أمام المحاكم التي ردّت دعواها ثلاثاً (الابتدائية والاستئناف والتمييز) وحكمت عليها بالمصاريف.

ماذا يبقى الآن من كل هذا القدح؟

يبقى ما قاله كتّاب وسينمائيون أخرجوا **الأساطير المؤسِّسة للقومية الاسرائيلية** كما يقول البروفسور زيف شترنهل. فبين أفلامٍ تجتاحنا أسبوعيًا في التلفزيون وفي الصالات، ركّزتُ على "الهولوكوست" و"الإبادة". واتهمتُ لأنني نَعَتُّ تلك الأعمال بـ"التافهة" و"امتهان تجارة الإبادة".

مع أنني استعرتُ التعبيرين من فيدال ناكيه. ففي مجلة "Esprit" (نيسان/أبريل) 1979 وفي مقاله "قتلة الذاكرة" كتب: "إنه وهمٌ رديء. ورقم 6 ملايين قتيل يهودي في نتائج نورمبرغ ليس مكرّساً ولا نهائياً". ورفض "استخدام الطبقة السياسية الاسرائيلية تلك المجزرة الكبرى بشكل يومي لا تعود معه تلك الإبادة اليهودية حقيقة تاريخية فعلية بل اداة ابتذال لشرْعَنةٍ سياسية، ومناسبة للسياحة والتجارة". وكان هو صاحب تعبير "امتهان تجارة الإبادة"، صناعة قال عنها ليون جيك عام 1981 أنْ "لا صناعة توازيها".

وأُذكّر أن مشروع استمرار التذكير بالإبادة نال عام 1985 من بيغن850 ألف دولار لكونه "مشروعاً ذا فائدة قومية" ("وكالة الأنباء اليهودية" (1986/6/20) وكذلك صحيفة "اليهودي" (نيويورك 1986/6/27).

وعن الهولوكوست قال آلان فيدالي "ليس ماركة مسجلة، ولا صندوقًا تجاريًا" (مقاله "الهولوكوست": أضراره ومنافعه"–1990 مجلة Sud-Ouest 1990/10/23)، وقال آلان فيكِلْرو: "يعتبر كلود لوزمان أنه ملتزم الإبادة الحصري، باختراعه تحديدًا جديدًا للعداء للسامية: المعادي للسامية هو من لا يخضع لما جاء في هذا الفيلم الفريد. إن هذا تقديس فظ ومقرف. ولو كان لدى الـ "نوفيل أوبسرفاتور" ذرّة إحسان، لما دعمت ذاك الرأي (في عددها 1991/1/31).

ورأى زفيتان تودوروف أن "... "الإبادة" فيلم عن الكراهية، مصنوع من الكراهية ويلقّن الكراهية" (كتابه **مواجهة التطرف** 1991).

هكذا، هل يكون فيدال-ناكيه وفنكِلْرو قادحَين ومعاديَين للسامية؟

ب- نزع القناع عن اللوبي الصهيوني

أنا أيضًا، بحسب مُتّهِميَّ، لم أذُمَّ أشخاصًا فقط، بل مجموعات إتنية أو روحية، باستخدامي تعبير "اللوبي الصهيوني".

قبل استخدام التعبير (لم يكن منتشراً بعد) عبّر عنه واضحاً، في **يومياته**، مؤسس الصهيونية السياسية تيودور هرتزل في رسالته الى سيسيل رود: "خلال خمسة مؤتمرات، ولدت منظمة تضم آلاف الجمعيات في العالم كله. والصهاينة يخضعون لأمر واحد من منشوريا الى الارجنتين، من كندا الى رأس الرجاء الصالح الى نيوزلندا. أكبر تجمع لمؤيدينا هو في أوروبا الشرقية. من خمسة ملايين يهودي في روسيا، 4 ملايين يؤيدون حتمًا برنامجنا. **لدينا منظمات** في كل اللغات المتحضرة. وضعنا متطلباتنا على نحو لا يمكن لأي حكومة أن ترفضه، حتى حكومة روسيا. عام 1898 استقبلوني في القدس مع أربعة من معاونيَّ كممثل للصهيونية، ورفعت الى السلطان مذكرة".

وهو بالفعل خلال مقابلته السلطان عبد الحميد ليشتري فلسطين حدّد دور مجموعة الضغط الخاصة به: "فليعطنا السلطان هذه القطعة من الأرض، وفي المقابل نعيد تنظيم أمواله ونجيّر له الرأي العام في كل العالم" (1896/6/8).

إذاً ما يحدد دعائم الصهيونية الأساسية: المال والإعلام.

ويضيف: "استطعت التأثير على الصحافة الأوروبية في لندن، باريس، بون، فيينا، بطرح القضية الأرمنية من وجهة نظر مناسبة للاتراك" (6/21/ 1896). وهو لام برنار لازار حين قام في باريس يدافع عن حق الأرمن، وتالياً يُفقِد المشروع الصهيوني أحد أوراقها الرابحة: كسب ودّ السلطان بدعمه في القضية الأرمنية" (1896/5/7).

كان هرتزل يروّج لقدرة اللوبي: "لدينا أصدقاء مسيحيون كثر في انكلترا، في الكنيسة وفي الصحافة، ووعَسدَنا 37 نائباً في مجلس العموم بدعم الصهيونية".

كلامه مع السلطان كان واضحاً: تبيعني فلسطين، أعيد تنظيم ماليّتك، وأدفع ديونك، وأعيد تلميع صورتك بتحَكّمي في وسائل الإعلام. ووعد بنشر الأسلوب عالميًا من فلسطين الى الارجنتين: "سأدعو بعض الاشخاص الى لقائي، وأستحلفهم التكتم وأطلعهم على

المخطط". (1895/7/12).

"الاستملاك الطوعي ينفذه عملاؤنا السريون... ولـن نبيـع إلاّ الى يهود. بـالطبع لـن نفعـل ذلـك معلنـين أن عمليـات البيـع الاخـرى غـير صالحة. وان كان هذا لا يتعارض مع العدالة بمفهوم العالم المعاصر، قوتنا تكفي لتخطي هذه الحدود". (1895/6/12).

في أميركا الجنوبية مثـلاً "وقبـل أن يفهمـوا الى أيـن نهـدف، ننـال تنازلات كثيرة مقابل الوعد بقرضٍ أقل من 1٪" (1895/6/12).

بعـد تأسيس دولـة إسـرائيل، حظـي هرتـزل بتلميـذ مثـالي: بـن غوريون الذي أعطـى اللوبـي العـالمي حجمـه السياسـي. ففـي "جريـدة اليهودي" (1961/1/9) كتب: "عندما يستعمل يهـوديٌّ في أميركـا أو في أفريقيا الجنوبية أمام رفاقه اليهود كلمة "حكومتنـا" فهـو يعـني حكومـة اسـرائيل. والشـعب اليهـودي في أيِّ دولـة مـن العـالم، يعتـبر السـفير الإسرائيلي ممثله الشخصي".

خلال المؤتمر الثالث والعشرين للمنظمة الصهيونية العالميـة (1951) لم يكتفِ رئيس الدولة الاسرائيلية الأول بن غوريون، بـإعلان أنّ "علـى الصهيونـي أن يـأتي الى إسـرائيل مهـاجراً" بـل أوجـب علـى المنظمـات الصهيونية في الدياسبورا "أن تساعد الدولة اليهودية في كل ظرف ومـن دون شرط، ولو كان هذا الموقف يتعارض مع السلطات حيث يقيمون" ("مهمـات الصهيونيـة الحديثـة وخصائصهـا" - "جـيروزلم بوسـت" (1952/8/17).

وفي المؤتمر اليهودي العالمي، احتج معارضون أظهروا أن هذا المبـدأ للصهيونية العالمية قد يثير العداء للسـامية. ومـذّاك وقفـت الصهيونيـة الى جانب إسرائيل من دون شروط.

مثلاً: عند اجتياح لبنان 1982، اعلن إيلي فـيزل: "بصفـتي يهوديـاً أتضامن كليًا مع ما حصل في إسرائيل، لأن ما تفعله اسـرائيل انمـا تفعلـه باسمي أنا ايضًا". (**كلمات مغترب** 1982).

وعام 1990، اعلن حاخام فرنسا الكبير جوزف سيتروك في القدس أمام رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك اسحق شامير: "كل يهودي فرنسي ممثلٌ لاسرائيل. ثقوا بأن كل يهودي في فرنسا يدافع عما تدافعون أنتم عنه" (الاذاعة الاسرائيلية - الاثنين 1990/8/9). وأعيد نشر هذا الكلام في "لوموند" (12و1990/8/13) وفي الصحيفة اليومية للتجمع اليهودي في فرنسا (Jour J - 1990/8/12) مضيفةً إليه: "ليس في ذهني ادنى فكرة عن تبعية مزدوجة".

إحدى التهم التي سيقت ضدي على أنها دليل لتمييز عنصري، استخدامي عبارة لوبي صهيوني أو لوبي اسرائيلي، مع أن استعمال هذه العبارة قديم، وردت في قانون الكنيست (1952/11/24) عن "المنظمة الصهيونية العالمية" (عضو خارجي لدولة اسرائيل)، إذ جاء في مادته الخامسة: "تعتمد دولة إسرائيل على مشاركة كل اليهود والمنظمات اليهودية في بناء الدولة" (**الكتاب السنوي لحكومة إسرائيل**- القدس 1953 - 1954).

وفي قرار جديد للكنيست عن المبادئ الأساسية لبرنامج الحكومة، نصّ المقطع 59 من الحكم التشريعي: "اتفاقاً مع المنظمة الصهيونية العالمية، وبحسب اتفاق بين الحكومة واللجنة التنفيذية الصهيونية، تمنح الحكومة دعمها الشرعي للحركة الصهيونية، وتطالب بتحقيق أهداف الصهيونية: المساهمة المادية الطوعية، انتشار اللغة العبرية، تطور حركة الرّواد، انتشار الهجرة والإقامة، دفق الرساميل الى اسرائيل، مواجهة كل محاولة لإنكار أن اليهود يؤلفون شعباً".

هذا اللوبي، في الولايات المتحدة، يتمتع بالشرعية الرسمية.

ففي مقالة عنوانها "وزن اللوبي المناصر للاسرائيليين" سماه مراسل "لوموند" في واشنطن "السفارة الثانية". وهو يمسك بالأمور مع أن أعضاءه (55 ألفاً) لا يمثلون سوى 1٪ من التجمع اليهودي الأميركي الذي يضم خمسة ملايين.

ومؤخراً قامت مجلة رجال الأعمال بتصنيف اللوبي الاسرائيلي

ثانياً في تراتبية الثروات الاميركية، أي انه يحل قبل اتحاد النقابات وفوق المجموعات الضاغطة الأخرى التي تؤلف الرأسمالية.

مثال على هذه القوة: أجرى رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ السيناتور فولبرايت تحقيقاً عن اللوبي لخصه خلال لقاء معه في محطة CBC (1973/10/7) بقوله: "الاسرائيليون يراقبون سياسة الكونغرس ومجلس الشيوخ". في الانتخابات التالية، خسر مقعده.

في تشرين الثاني/نوفمبر 1976 قام ناحوم غولدمان (رئيس المؤتمر اليهودي العالمي) بزيارة الى واشنطن قابل خلالها كارتر ومستشاريه فانس وبريجنسكي، وفاجأ إدارة كارتر بنصيحة غريبة: "كسر اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة" (مجلة "شترن"- نيويورك 1978/4/24).

وكان غولدمان (الذي كرّس حياته للصهيونية) يعتبر اللوبي "قوة مدمرة" و"حاجزًا كبيرًا أمام السلام في الشرق الأوسط".

بعد ستة أعوام على لقاء واشنطن، أكّد المستشار سايروس فانس ما كان قاله غولدمان حول "كسر اللوبي"، وأضاف: "لكن الرئيس ووزير الخارجية أجاباه بأنهما لا يملكان السلطة لذلك" (حديث فانس الى إدوارد تيفنان- كتابه "اللوبي" 1987).

في فرنسا وحده الجنرال ديغول تجرأ على القول "في فرنسا لوبي اسرائيلي قدير يمارس تأثيره خاصة في الأوساط الإعلامية". هذا التصريح يومها أثار فضيحة. لكنه يتضمن جزءًا من حقيقةٍ ما زالت راهنة". (فيليب ألكسندر: "الانحياز الاسرائيلي" Le Parisien Libéré 1988/2/28).

أثناء الحرب ضد العراق (1990) كتب الوزير الديغولي السابق والأستاذ الجامعي اليوم آلان بيرفيت: "مجموعتا ضغط قديرتان تدفعان الولايات المتحدة الى إطلاق شرارة الحرب:

1- "اللوبي الاسرائيلي": فاليهود الاميركيون يلعبون دوراً رئيسياً في الجهاز الإعلامي الأميركي. والتسوية المستمرة بين الرئيس

والكونغرس تدفع بالبيت الابيض الى مراعاة مطالبهم.

2- "لوبي الأعمال"، إذ إن الحرب قد تنعش الاقتصاد مجدداً، وتعيد الازدهار الى أميركا" (الـ"فيغارو" 1990/11/5).

وفي جريدة "وول ستريت" (1987/6/24) جاء: "لا نُقَلِّلَنَّ من التأثير السياسي لدى لجنة الشؤون العامة الاميركية الاسرائيلية، فحجم موازنتها ازداد أربعة أضعاف من 1982 الى 1988 (من مليون و600 ألف دولار عام 1982 الى 6 ملايين و900 ألف دولار عام 1988)".

في فرنسا، تمارَس الضغوط بأساليب أقل رسمية انما فاعلة.

مثلاً أعلنت الصحافة في 1996/4/30 (بما فيها الـ "Humanité") أن هنري هادْجنبرغ "رئيس المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في العالم طلب "أن تتخذ كنيسة فرنسا موقفاً من كتاب روجيه غارودي ومن الدعم الذي يبديه تجاهه الأب بيار".

وسرعان ما انصاعت السلطة الكنسية، فأصدرت بياناً في 29 نيسان/أبريل يأسف "لوقوف الأب بيار الى جانب روجيه غارودي". وأبدى هادْجنبرغ رضاه من موقف كنيسة فرنسا التي "همّشت" الأب بيار. في اليومَ نفسه دان مكتب الـ"ليكرا" الأب بيار "لأنه يواصل دعمه روجيه غارودي" وأكثر: رأى المكتب أنْ كان على كنيسة فرنسا التماس المغفرة من الصهاينة بسبب تصرفها إزاء اليهود خلال نظام فيشي.

وكان طبيعياً من **الكنيسة** لا أن تعترف فقط بمشاركة آلاف المسيحيين في المقاومة وحماية أعداد كبيرة من المقاومين واليهود من المحتل النازي، بل أن تعترف **الأسقفية** بذنْب دفع الكاثوليك الى التعاون، حين تمثّل الأساقفة الفرنسيون بالأساقفة الألمان في رسالتهم الرعوية (1936/12/24) بدعوة الكاثوليك الى دعم هتلر: "أدرك أدولف هتلر في الوقت المناسب تضخم البولشيفية... ويعتبر الأساقفة الألمان أن من واجبهم مساندة قائد الرايخ في معركته".

وفي 1937/3/17 دان البابا العنصرية في رسالته البابوية من دون أن يخلّ بالمعاهدة البابوية الموقعة مع هتلر. وعام 1940 خلال مؤتمر الأساقفة الألمان في فولدا حضّت الاسقفية الألمانية مجددًا وبالاجماع على دعم الفوهرر في هذه المعركة القاسية.

وحذت الاسقفية الفرنسية حذو الألمانية، فهوذا كبير الأساقفة الفرنسيين يقول في 1940/12/20: "لنحمد ا لله أنه اعطانا هذا القائد" (بيتان). وفي 1941/7/24 أصدر الكرادلة والمطارنة (إلاّ الكاردينال ساليج في تولوز) بياناً دعا بوضوحٍ الى التعاون مع هتلر: "نشجع المؤمنين على ألا يخافوا من التعاون".

ومن حسن الحظ، لم يتجاوب ملايين المسيحيين مع هذه النداءات. ففي الصحيفة السرية "دفاعِ فرنسا"، كتب كاهنٌ فرنسي (1943/7/5): "كان لرجل الدين عامة في الرعايا، ومنذ ثلاث سنوات، نفس ردود الفعل الشريفة التي كانت لدى الأكثرية السليمة من السكان. فهذا الاحتكاك المباشر مع شعب فرنسا أساء، مع الأسف، الى أصحاب المقاماتٍ في الكنيسة. فمنِ المأساوي في بلادنا أن يتصرف رجل الدين منفصلاً عن الشعب الذي أُعطيت اليه مهمة قيادته".

و لم تكن تلك مأساة فرنسية فقط. ففي تشرين الثاني/نوفمبر 1946، كتب الكاردينال الاميركي سبيلمان في مجلة "كوزموبوليتان" أن "الشيوعية تحريضٌ ضد كل من يؤمنونٍ بأميركا وبا لله"، وهو الذي ذهب الى الفرق الاميركية في الفيتنام قائلاً للجنود: "أنتم جنود ا لله".

بالعودة الى فرنسا: لم يكن يحق للأساقفة طلب الغفران باسم الكنيسة، فكهنة الرعايا والمؤمنون الكاثوليك غير المتعاونين هم أيضًا جسمُ الكنيسة. على كل حال، لم يطلب اليهم أحدٌ طلب هذا الغفران الـ"ليكرا" لأن كل المسؤولين أصبحوا في عداد الاموات.

وفي فرنسا كان للّوبي اليهودي نفسه قدرة تطويع رئيس الجمهورية وفق السياق التاريخي لحكومة فيشي.

فالجنرال ديغول كان يرفض كل شرعية لممثلي حكومة فيشي، غير معتبر إياهم دولة "أعلنتُ عدمَ شرعيةِ نظام كان تحت رحمة العدو"... "هذه ليست حكومة فرنسية مستقلّة"..."هتلر هو الذي خلق فيشي" ("مذكرات ديغول").

وفي 1995/7/14، وتحت تأثير حاخام فرنسا الأكبر نال الصهاينة من رئيس الجمهورية تكذيباً مزدوجاً للجنرال ديغول: عن حكومة فيشي وعن موقف الشعب الفرنسي: "دعم الفرنسيون والدولة الفرنسية جنونَ المحتل الاجرامي" معترفاً بفيشي كدولة فرنسية وجاعلاً من الشعب الفرنسي متعاوناً.

في اليوم التالي، أعلن المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في فرنسا ارتياحه لتراجع فرنسا، ولاعتراف السلطة الفرنسية العليا باستمرارية الدولة الفرنسية بين 1940 و 1944".

الجنرال ديغول (في مذكراته) لم يكنّ هذا الإحتقار لشعب فرنسا: "غالبية الشعب الفرنسي الساحقة رفضت نظاماً فرض بالعنف والخيانة، ورأت في سلطة فرنسا الحرة التعبيرَ عن إرادتها وأمنياتها". وأضاف أن الدليل كان هبوب أهل باريس: "أربعة أعوام من القمع لم تستطع تقليص روح العاصمة، والخيانة لم تكن ألا رغوةً طفَتْ على سطح جسم بقي سليمًا"..."ولم يتنكر شعبنا لنفسه حتى في أحلك الاوقات".

لو كانت فيشي دولة شرعية، لكان ديغول "فاراً" (كما أسمته حكومة فيشي) وكنا نحن المقاومين جميعنا "خونة وإرهابيين".

وإذا كانت كلمة **لوبي** معيبة، أستغرب ورودها في **دليل اليهودية الفرنسية** الذي نشرته شخصيات مثل السيدة أورلندا هادْجنبرغ وورد فيه صفحة 74: "التجديد اليهودي، الذي أسسه هنري أدْجنبرغ عام 1971، أراد زرع نظام اللوبي في فرنسا".

وقراءة هذا الدليل وحدها، تكشف لنا تَوَجُّه هذا اللوبي. ففيه:

ص80: "اليهود، في غالبيتهم الساحقة، مقبولون في إسرائيل بدون

شروط. ولكل حزبٍ سياسيٍّ إسرائيليٍّ فروعٌ في فرنسا".

ص150: "في الهجوم على اسرائيل، هجوم على علّة وجود اليهود في فرنسا".

ص91: "في فرنسا ممثلون لمنظماتٍ يهوديةٍ أنشأها في أميركا عام 1960 أثرياء يهود ألمان استقروا في الولايات المتحدة: اللجنة الأميركية اليهودية".

ص92: "خلالَ أعوامٍ طويلة، ظل "الوصل" ممسكاً بشؤون اليهود الغربية، ويقدم دعماً مادياً".

ص74: "غنِمَ تيار "التجديد اليهودي" في سنواتٍ قليلة جمهوراً كثيراً، بفضل دعم شخصيات إسرائيلية (خصوصًا Avi Primor)".

ص82: "هكذا لا يستطيعُ مجموع المنظمات العيش من دون مساهمة الوكالة اليهودية المالية المنبثقة عن منظمة الصهيونية العالمية. وليست سفارة إسرائيل غافلة عن التطور الداخلي للمجتمع. وأثبتت آخر الاختبارات ضرورة تمسُّك المؤسسات اليهودية باستقلاليتها التامة، لتُفيد من دعم الدولة الاسرائيلية بشرياً ومالياً".

ص62: "المبالغ التي جمعتها الحركة اليهودية تتوزع بغير تساو بين دولة اسرائيل ومجتمع فرنسا اليهودي. وهي مبالغ أتاحت لـ"الصندوق الاجتماعي اليهودي الموحد" إحكام سيطرته على معظم المؤسسات اليهودية في فرنسا".

ص74 – "هل تشهد الاستحقاقات السياسية المقبلة ظهوراً سياسياً جديداً للحركة اليهودية الفرنسية؟ السؤال يبقى معلقًا، لكن أحزابًا سياسية لم تنتظر، فخلقت خلايا في الأوساط اليهودية: "اليهودية والحرية" (في حزب الإصلاح من أجل الجمهورية") أو "الاشتراكية واليهودية" (في الحزب الاشتراكي").

لا أظن هذه النصوص تستدعي أي تعليق. ففيها كل شيء: الاعتراف بوجود اللوبي، وبتمويله الاجنبي، وبالتسلل الى كل الاحزاب،

وبالتصويت اليهودي. يبقى التذكير بأن هذا اللوبي (القوي في تسيير المجتمع وخصوصًا السلطة السياسية أو الاعلامية) لا يمثل، كما يقر تيو كلاين، إلاّ عُشرٍ اليهود في فرنسا. ذلك أن يهود فرنسا في أكثريتهم الساحقة ليسوا ممثلين بهؤلاء الأشخاص، ولا مسؤولين عن حقارتهم. والمأساة أن المكانة الذي تحتله هذه الأقلية تثير بتحرٌكها موجة عداء للسامية تضطرّنا الى محاربتها.

مجرد الحديث عن اللوبي الصهيوني يُسبب تهمة القدح. و**القادحون** المعادون للسامية (منذ حدَّدِ مضمونها هرتزل وبن غوريون) كثيرون قبلي وغالبًا بارزون، بينهم مثلاً ناحوم غولدمان (رئيس المؤتمر اليهودي العالمي)، الجنرال ديغول، آلان بيرفيت، وحتى هاذْجِنبرغ، وجميعهم، مثلي، يطالهم "الحكم" الذي طالني.

الفصل الثاني

من يخفّف من شأن جرائم هتلر؟ أمَن يضعونها في إطار تاريخ اليهود؟ أم في إطار التاريخ العام؟

ملاحظة تمهيدية:

قبل الدخول، ولـو إيجـازاً، في الأرقـام، أكـرّرُ تشـديدي علـى مـا تظاهر متهمِيَّ بأنه لم يبلغهم، مع أنني ذكرتهُ غير مرةٍ في كتابي: **"جوهر الأمر ليسَ إحصاء عدد الموتى... حتى لو لم يكنِ بينهـم سـوى بـريءٍ واحد، يهوديٍ أو غيرِ يهودي، كانت تلك جريمةً بحق الإنسانية"**.

ولتشديدي على هذا الأمر دافعان:

1) إذا كان عدد الضحايا (مليوناً كان أم عشرة ملايين) لا يخفّف من فظاعة الجريمة ولا يضيف شيئاً عليها (بالنسبة الى الجـلاّد إن لم يكـن بالنسبة الى الضحايا)، فلماذا إذاً هذا الإصرار علـى تكريـس أحـد هـذه الأرقام: ستة ملايين؟

2) ليس جدالي حول صحة هذا الرقم أو ذاك (فأنا في ذلك أستند الى الاختصاصيين وأكرر تقديراتِ أكثرهم ثقةً مثل رايتلـينغر Reitlinger أو هيلبرغ Hilberg) بل أعـترض فقـط علـى اتخـاذ هـذه الأرقـام **المحرّمـة** منطلقاً **لاستغلال سياسي**.

يتهمني بالتخفيف (!) من هول جرائم هتلر مَن ليسوا يشيرون الى أن تلك الحرب خلّفت خمسين مليون ضحية، وبذلك هم الذين يخففون من جرائم هتلر. فها آنّا آرِنْدْت (Annah Arendt) في كتابها **آيخمان في القدس** (ص431) هي نفسها تقول: "بالنسبة للاتهام، كانت تلك أكثر المذابح وحشيةً في تاريخ اليهود". أو ربما مُتهمِيَّ يفكرون كما يبغين في شأن مذابح صبرا وشاتيلا إذ قال: **"قوم غيرُ يهود قتلوا قوماً غيرَ يهود، فما شأننا بذلك؟"** ويعتقدون أن ليس من تاريخ عام يكون فيه الناس أجمعين معنيين به ومسؤولين عنه.

هكذا تكلم الصهيونيون أنفسهم *عن أكبر عملية إبادة في التاريخ*، وهذا صحيحٍ في تاريخ اليهود لا في التاريخ العام الذي، للأسف، لا يبدو مهماً لديهم. واللافت أن هذا لم يحصل حتى في نورمبرغ، إذ يشير المحامي فارو (Varaut) في كتابه **محاكمة نورمبرغ** أنّ "مِن أصل 115 صفحة مخصصة لعرض الجرائم العام، سبعٌ فقط خصِّصت لاضطهاد اليهود" (ص 379). وفيٍ هذا الاتجاه نفسه يذهب أعمقُ تحليل للمحاكمة قام به مَن كان قاضياً في نورمبرغ: رجل القانونٍ الكبير دونديو دو فابر (Donnedieu de Vabre)، وسوف نذكر لاحقاً مطالعته التي ألقاها حول هذا الموضوع على منبر كلية الحقوق في باريس.

الى هذا، عمدت وسائل الإعلام، منذ خمسين سنة، الى تضخيم عدد الضحايا اليهود، بشهادة رايتلِنغر في الحصيلة المؤثرة التي خرج بها (ص 459 مِن كتابه "الحل النهائي" – 1953): "أعلى رقمٍ في تقديراتي، ما زال بعيداً عن الستة ملايين، الرقم الذي حصد إجماعاً. وهذا الفارق، مليون ونصف المليون، أضيف بدون أية علاقة مع حقيقة الوقائع". ويضيف (ص 500): "إذا بحثنا في أمر أولئك الضحايا وجدنا أن أكثر من ثلث اليهود المفقودين في أوروبا لم يمت من التعذيب الجسدي المباشر، بل من الأشغال الشاقة والأمراض والجوع وفقدان

الاسعافات... وأرقام معتقلَ أوشفيتز، رغم مدلولها **الرمزية**، تشكّل أقل من خمس عدد الضحايا". ويقول في مكان آخر (ص480): "بات العالم يشكّ في الأرقام المتلاعَب بها، وصار رقمُ الأربعة ملايين (في أوشفيتز) مهزلة. والإحصاءات الروسية أصرّت بعنادٍ وثبات على أن الذين ماتوا في أوشفيتز لا يتجاوزون المليون".

والأبحاث اللاحقة التي قامت بها "الجماعة العلمية"، وخصوصاً أبحاث بولياكوف، وهيلبرغ، وبيداريدا وبريساك أكّدت حذرَ رايتلينغر وهشاشة الستة ملايين رقماً محرَّماً لا يُمَس.

فهذا، مثلاً، بولياكوف (الخبير الفرنسي في البعثة الفرنسية الى نورمبرغ) يقول في **كتاب الكره** (ص 383): "لا نظننا نخطئ إذا افترضنا أن المحكمة الدولية لكبار مجرمي الحرب هي نفسُها وراء هذا الرقم، وهي التي نشرته بهذا الاتساع، بدليل ما ورد في حكمها صفحة 266: "إنّ أدولف آيخمان، الذي عهد إليه هتلر ببرنامج الإبادة، قدَّر أن هذه السياسة سببت موت ستة ملايين يهودي، بينهم **أربعة ملايين قضوا في معسكرات الإبادة**". صحيحٌ أننا لا نجد تحديداً لمصدر هذه المعلومة، ولكننا من محضر الجلسات نستنتج أن المحكمة استندت الى شهادتين غير جديدتين، من فيلهلم هوتل (Wilhelm Hottl) وديتر فيسليسني (Dieter Wisliceny) اللذين أكّدا الحصول على هذا الرقم من آيخمان. هكذا يمكن الشكُّ في هذا الرقم، وردُّهُ لافتقادهِ الحجة".

وحول العدد الإجمالي للضحايا اليهود، يضيف بولياكوف في كتابه: "حين المنشوراتُ المخصصة للحرب الأخيرة، ومنشوراتٌ أخرى كثيرةٌ صادرةٌ في مختلف البلدان، تتطرق الى الاضطهادات العرقية، تذكر رقم الستة ملايين يهودي أبادهم النازيون، إنما لا ترفقه بأية حجج أو إحصاءات تؤيده. فمن أين أتى إذاً هذا الرقم وكيف نصدّقه؟".

يشرح بولياكوف (صفحة 388) كيف بلغ هذا الرقم الستة ملايين.

استناداً الى تحليل بولياكوف (اعتمده راوول هيلبرغ واستشهد به بيداريدا)، إذا كان صحيحاً أن محكمة نورمبرغ تبنت تسَبُّب سياسةِ الإبادة بموت ستةِ ملايين يهودي، بينهم أربعة ملايين في المعسكرات، وإذا طرحنا، مثلاً، في معتقل أوشفيتز ثلاثة ملايين من أربعة، كيف نحصل على ستة ملايين إذا لم نؤكد أن 6–3=6 حتى لو لم نأخذ في الاعتبار أرقاماً تخفيضية في المعسكرات الأخرى؟

مفتاح هذه العملية الصعبة مع بولياكوف إذ يقول: "الطريقة الثانية التي طبقها خبراء الديموغرافيا اليهودية (وعلى الأخص الاقتصادي والاحصائي النيويوركي جاكوب ليسْتشِنسكي) تقوم على مقارنة أعداد الشعب اليهودي قبل الحرب وبعدها في مختلف البلدان الأوروبية. بهذه الطريقة توصلت منظمات يهودية دولية، منذ 1945، الى الرقم نفسه دائماً: ستة ملايين. من هنا، **وإزاء فقدان بيان إحصائي دقيق، يمكنُ قبول ذاك الرقم على أنه الأرجح، حتى لو تكوَّن من عناصر مشكوك بها**".

هكذا حصل "المؤتمر اليهودي العالمي" على رقم الستة ملايين، لمجرد مقارنة "أعداد الشعب اليهودي في مختلف البلدان الأوروبية قبل الحرب وبعدها"، أي بدون اعتبار الهجرات.

هذا هو إذاً أصل المبدأ بتكريس هذا **الرقم الذهبي**.

هل سقط في روسيا 17مليوناً أم 20 مليوناً كما يدَّعي السوفيات؟ هل أُعدِم 70 ألف اشتراكي فرنسي بالرصاص كما يدعي حزبهم، أم 35 ألفاً كما يذكر الجنرال ديغول في **مذكراته**؟ هل سقط في الحرب 60 مليون ضحية أو 50 مليوناً كما يؤكد البابا؟ كل هذه الأرقام قابلة للمناقشة، إلا رقم الستة ملايين كما كرسته الصحافة والكتب المدرسية والموسوعات.

هنا، وكما كررتُ مراراً في كتابي (ص 159)، لستُ الى استرسال في **إحصاء عددِ الموتى**. بل قلتُ مرتين (ص159 و247) إنّ "قتل بريءٍ واحد، يهودياً كان أم غيرَ يهودي، جريمةٌ بحق الانسانية".

فجوهر المسألة هنا ليس أن الجريمة أكبر أو أصغر إذا قُتِلَ تسعةُ ملايين يهودي (كما ورد في فيلم آلان رينيه **الليل والضباب**) أو يهودي واحد. ما أشجبه في كتابي هو الاستغلال السياسي والمالي لكل الأساطير المضخمة: من فكرة الأرض التي وهبها الله لشعب مختار واحد على حساب الشعوب الأخرى، الى الاستغلال الحسابي الذي لم يُفِدْ فقط في التعويض عن الضحايا (وهو أمر عادل) وإنما – كما يقرّ ناحوم غولدمان في سيرته الذاتية (ص286) – أفاد أيضاً في خلق البنى التحتية لدولة اسرائيل.

ما مسَّ شرفي، أن يُنسَبَ إليَّ إنكار هذه **الجرائم بحق الانسانية**. فكتابي لا ينفك يشجب **مخطط هتلر الفظيع** (ص62 و251) ووحشيته (ص97)، **وجرائمه المرعبة التي لا ينفعها أيُّ كذب لكشف شناعتها** (ص135). فبعد أن وصفتُ **الظروف المريعة التي تسببت بعشرات الألوف من الضحايا**، استنتجتُ: **تلك كانت سيرة الشهداء المهجَّرين اليهود والسلافيين، ووحشية أسياد هتلريين كانوا يعاملونهم عبيداً ليس لهم أية قيمة إنسانية** (ص257). وأضيف: **لا يمكن التقليل من هول هذه الجرائم ومن عذابات لا توصفُ، كابدها الضحايا** (ص257)... **ثابتٌ أن اليهود كانوا أحد أهداف هتلر الأولى في نظريته العرقية القائمة على تفوق العرق الآري** (ص152).

كنت دوماً أعتبر مناهضةَ الساميةِ جريمةٌ يعاقب عليها القانون بحق، وأطلب من العدالة أن تعالج القدْح الذي لحق بي من "العصبة الدولية لمناهضة العنصرية واللاسامية" ("ليكرا" LICRA) كما فعلت محكمة النقض سنة 1987، قبل قانون غايسو (Gayssot) المشين، إذ تناولت تحليلي الاعتداءَ على لبنان وأعلنت اتهامها: "بما أن "الـ"ليكرا"، بناء على تبليغ المحكمة المشار إليه، لاحقت المتهمين أنفسهم بالتهمة ذات الطابع العرقي والقومي والعنصري والديني، فهي توجِّه إليهم التهمة المذكورة في الفقرة التالية: يُعتبر يهودياً، في تل أبيب كما في نورمبرغ، كل من وُلِدَ من أمٍّ يهودية. هكذا يُحدد نسل ابرهيم عنصرياً: لا بشراكة الإيمان بل باستمرارية الدم"... و"بما أن محكمة الاستئناف

استنتجت بحَقٍّ أن هذه الفقرة - أيّاً يكن موقفُ مضمونِها من القاعدة التي تعنيها - لا تنسب الى جماعةٍ من الناس أمراً يمسّ شرفها أو احترامها، وبما أن الحكم المنتقَد من جرّاء ذلك، بصرف النظر عن أية أسباب أخرى، قرر بكل عدلٍ أنّ هذا النصّ (المذكور في الاستدعاء أنه وحده يكوِّن الجرم الوارد في الفقرة 32 من قانون 29 تموز/يوليو 1881) ليس يشكّل المخالفة المذكورة، ولذا يجب إبعاد الوسيلة. وبما أن القرارَ قانونيٌّ شكلاً، قررت المحكمة رَدَّ الطعن وتغريم الطاعن بالمصاريف".

اليوم، بعد سنتين من الحكم الأول، ومع سياسة الحرب التي يتبعها نتنياهو (الوريث الروحي لإسحق شامير وبيغين على رأس الليكود)، يظهر واضحاً كونُ ذنبي الوحيد أني كنت على حق قبل آخرين ممن يُقرّون اليوم بتجاوزات القادة الاسرائيليين.

هل التقليل من فظاعة جرائم هتلر (كما أُتّهم) ينتج عن انتقادي إجراءات نورمبرغ وهو لا ينضوي في إطار القانون الأثيم المتعلق فقط بالذين "يشكّون بوجود جرم واحد أو عدة جرائم بحق الإنسانية، كما تحددها المادة 6 من قانون المحكمة العسكرية الدولية، والملحقة باتفاق لندن في 8 آب/أغسطس 1945"؟

على أيٍّ حال، هذا الأمر لا ينطبق أبداً على وضعي. وحول هذا الموضوع، أستشهد بما قاله أحد القضاة الفرنسيين في **محكمة نورمبرغ**، المشرِّع الكبير دونديو دو فابر في مطالعته على منبر كلية الحقوق في باريس حول **محكمة نورمبرغ**.

فهو ينَوِّه بمغزى هذه المحاكمة، كما أوضحه رئيسها مدعي عام الولايات المتحدة روبرت أ. جاكسون في جلسة 6 تموز/يوليو 1946: "ما زال الحلفاءِ تقنيّاً في حالة حرب مع ألمانيا. من هنا أن هذه المحكمةَ العسكريةَ استمرارٌ لجهود الحلفاء الحربية". ولا يجادل دو فابر في فائدتها كآخر تعبير عن الأعمال الحربية التي تقيِّم النصر. لذا يشدد على أنها **محكمة استثنائية**.

حتى آنّا آرِنْدْت ستصفها بـ"محكمة المنتصرين" وتضيف "ليست مرجعاً طريقةً تبرير كفاءة محكمة نورمبرغ العسكرية". ويلاحظ دو فابر أنها ليست محكمة دولية بل "**محكمة بين الحلفاء**" (ص69)، وأنها "محاكمة سياسية" (ص13) وقانونها "ظرفي" (ص90)، وأنها جرت حسب "قواعد إجرائية" لا تتوافق مع القانون الفرنسي بل الانكلوساكسوني (ص10)، بدليل أن "المرافعات تسبق الاتهام... بينما العكس يجري في فرنسا" (ص 153).

كلّ هذا يحدّ حتماً من مثالية المحاكمة القضائية، ويستبعد اعتمادَها معياراً للحقيقة التاريخية. ومما يثبت ذلك، ما ورد في:

المادة 19: "لا ترتبط هذه المحكمة بالقواعد التقنية المتعلقة بإقامة الدلائل، بل تتبنى وتطبق قدْر الإمكان إجراءاتٍ غيرَ شكلية، سريعةً (التعبير الانكليزي يقول: "عاجلة")، وتتبنى كل وسيلة تعتبرها ذات قيمة مقنعة".

المادة 21: "لا تطلب المحكمة إبراز حجة الوقائع المعلومة لدى الجميع، بل تعتبرها مقررة. كما تتبنى الوثائق والتقارير الرسمية لحكومات الحلفاء وتعتبرها إثباتات حقيقية".

هذا ما يوضح الغموض في تحديد "الجريمة بحقٍّ الانسانية". وعن دو فابر أنّ "الشرعة أدخلَت من الباب الضيق نوعاً جديداً من الجرائم: **الجريمة بحق الانسانية**، وطارت هذه الجريمة من الباب نفسه عندما لفظت المحكمة حكمها" (آنّا آرِنْدْت في كتابها **دعوى أورشليم** – ص416).

من هنا أنّ يوليوس ستر‌ايخر (واضع القوانين المناهضة للساميّة في نورمبرغ) كان وحده الذي جُرِّم ونفذ فيه الحكم لأجل هذه "الجريمة بحق الانسانية".

ويشدد البروفسر دو فابر على أربع خصائص للاجراءات:

الأولى: حظر ذكر جرائم الحرب التي ارتكبها الحلفاء ضد السلام وضد الانسانية. وهذا "الزَّجر" صدر بالضبط في 1945/8/8، أي بعد يومين من قنبلة هيروشيما، وقبل ليلة واحدة من قنبلة ناكازاكي. في حين لم تكن لأي من هذه الاجراءات فائدة عسكرية، لأن أمبراطور اليابان كان اتخذ قرار الاستسلام، وآلة "ماجيك" الانكليزية لفك الرموز كانت ترجمت النوايا اليابانية (بول ماري دولاغورس في كتابه **39–45 حرب مجهولة**). وهذه إذاً، بوضوح، "جريمة حقيقية بحق الانسانية".

هكذا نفهم لماذا مُنعت حجة "وأنت أيضاً". فضلاً عن ذلك، لم يكن الأمر متعلقاً بحدثٍ منفصل: ففي 10 آذار (مارس) 1945 وقّع الجنرال آيزنهاور أمراً يعتبر الأسرى الألمان "قوى معادية منزوعة السلاح"، أي لم يعودوا أسرى حرب، وتالياً (وفق معاهدة جنيف) ينالون وجبة الطعام نفسها التي يحصل عليها الجنود. عندها، كان في ألمانيا أربعة ملايين أسير، مُنِعَتْ من تموينهم قوافلُ المؤن التابعة للمركز الدولي للصليب الأحمر، وصدّ الجيش الأميركي قوافل المؤن في حزيران (يونيو) 1945، ثمَّ في آب (أغسطس) 1945، رغم احتجاجات الجنرال روبرت ليتلْجون الذي أعلم القيادة العليا بأن آلافاً من الأسرى يموتون جوعاً. عندئذٍ كتب الجنرال باتون الى آيزنهاور رسالة لامه فيها لاستخدامه "أساليب الغستابو" على الجنود الألمان (جيمس باك: "ضقت ذرعاً بكل الأكاذيب التي تنشر"، 7/5/ 1995).

في 13 شباط (فبراير) 1945، إذ لم تعد مدينة دْرسْد (Dresde) هدفاً عسكرياً بسبب تقدم الجيوش السوفياتية، ولم يَعد فيها سوى اللاجئين والمدنيين، دمَّرتها الطائرات الانكليزية والأميركية، بأمر من تشرشل، مستعملة قنابل فوسفورية أحرقت المدينة كلها وخلّفت ضحايا أكثر من هيروشيما (بين 135 ألفاً و250 ألفاً أُحرقوا في ليلة واحدة). وهذه إحدى أكبر الجرائم بحق الانسانية (مجلة "نوفيل أوبسرفاتور"– 7/3/ 1996).

الثانية: رفضُ تحليل الظروف التاريخية لوصول هتلر الى الحكم. ينوّه دو فابر بـ"تحريم أية مناقشة لشرعية معاهدة فرساي" (ص191). وهو بند لا يضاهيه غرابةً سوى وصول هتلر الى الحكم بأكثرية انتخابية، مما يدل على تأثير ديماغوجيته الدموية في الرأي العام، وعلى حالة اليأس التي خلقتها في ألمانيا تلك المعاهدة. وكان الاقتصادي الشهير لورد كينس (Lord Keynes) قال في كتابه **نتائج السلام الاقتصادية**: "إذا سعينا الى إفقار أوروبا الوسطى، أجرؤ على التنبُّؤ بانتقام رهيب: سنشهد في غضون عشرين سنة حرباً تدمر الحضارة، كائناً من كان فيها المنتصر".

وكنت في كتابي (ص93) نشرتُ إحصاءات ازدياد البطالة في ألمانيا بإزاء ما كان الحزب النازي يومها يسجل من انتصاراتٍ في الانتخابات. وهذا ما يبرر الحوار التالي نهار 5 تموز (يوليو) 1946 في محكمة نورمبرغ بين الدكتور سايْدِل (محامي رودولف هس) والرئيس، كما ذكرته آنا آرنْدْت في كتابها:

د.سايدل: حضرة الرئيس، لا أستطيع ترك المحكمة في حالة إبهامٍ حول العلاقة الوثيقة بين معاهدة فرساي ونتائجها، وبين وصول الحزبً الاشتراكي الوطني الى السلطة. كان هذا الوصول إحدى نتائج معاهدة فرساي. ومرافعتي ، في جزءٍ منها، تتناول هذا الأمر. وبالنسبة اليّ، أرى ...".

الرئيس: "د. سايدل، قلت لك إن المحكمة لن تصغي إليك متحدثاً عن معاهدة فرساي".

د. سايدل: "إذاً، إذا كان الحزب الاشتراكي الوطني أحرز انتصاراً انتخابياً عظيماً، في انتخابات 14 أيلول (سبتمبر) 1930، ونال 107 نواب، فليس بسببِ الأزمة الاقتصادية آنذاك، ولا البطالة المتفشية، ولا النظام الذي خلافاً لكل منطق اقتصادي دعا الى تعويضات بواسطة معاهدة فرساي، ولا بسبب رفض القوى المنتصرة إعادة النظر في هذه

المعاهدة، رغم التحذيرات البالغة الإصرار، بل لأنه كان صحيحاً تماماً كون ...".

الرئيس (مقاطعاً وحاسماً الحوار): "إن معاهدة فرساي، عادلةً أو غير عادلة، لا ترتبط بالاعتداءات الحربية الألمانية".

الثالثة: رفض التحليل النقدي للشهادات: عن دو فابر (ص152 و153) في شأن الشهادات أنه "من بين الضحايا، تمّ اختيار 15 شاهداً كانت إفاداتهم الأكثر إيحاءً، وقُدِّموا الى المحكمة لاستماعهم"، استناداً الى المادة 17 من النظام الذي "بموجبه تكون المحكمة صالحة لتعيين مكلفين رسميين للقيام بأية مهمة تحدِّدها المحكمة وخصوصاً لجمع الاثباتات بالتفويض" (المرجع نفسه ص153).

ولا حاجةَ للتعليق على هذا المعيار في الاختيار. وبعد أن يعدِّد دو فابر بعضِ هؤلاء الشهود ويصفهم، يضيف (ص203) أن "الأمثلة المذكورة تبرز طابع أكثر الإفادات التي اعتمِدَت في محاكمة نورمبرغ والتي حتماً لا تعطي فكرة دقيقة عن الحقيقة، حتى لو أدلى بها تحت القسم مَن كانت لهم مصلحة في إنجاز المحاكمة وتمويه الحقيقة لمصلحتهم...".

وهذا يصحّ على شهود الاتهام كما على شهود الدفاع. أما في ما يتعلق بشهادات الجلادين، فيستنتج فيدال ناكيه (Vidal Naquet) في كتابه: **قتلة الذاكرة** (1987): "في وثائق أوشفيتز، شهادات توحي بأنها تتبنى كلياً لغة المنتصرين". والنموذج الأبرز (المعتَبَر الأهَم) هو آمر معتقل أوشفيتز الشرير رودلف هس. ففي إفاداته الأولى (5 نيسان/أبريل 1946) ولاحقاً في الصيغة الموسّعة التي أدلى بها في المحكمة، روى ما كان متّهموه ينتظرونه منه: فظائعَ وتناقضاتٍ وتشويهَ حقائقَ (رواها المؤرخون كاملةً في ما بعد). وما إلاّ عام 1983 حتى روى روبيرت باتلر (Ruppert Buttler) في كتابه **فصائل الموت** كيف برنارد كلارك (الذي قبض على هس)، سرد باعتزاز أساليب التعذيب التي مارسها على هس كي ينتزع منه اعترافات (وقّع عليها مرغماً) هي لمحة عن سيرة

حياته يكشف فيها هس أن "الاعترافات انتزعت مني تحت الضرب. لا أعرف ما يحتوي التقرير، ولكني وقّعته" (**آمر في معتقل أوشفيتز** ص174).

ويؤكد بريساك في **محارق معتقل أوشفيتز** (1993) أنه تعرض للّكم بشراسةٍ مراراً حتى كاد يموت، حتى يوقّع على اعترافاته. ووردت أمور مماثلة في تقرير جرشتاين (Gerstein) المحرَّف الذي رفضت اعتمادَهُ محكمةُ نورمبرغ رغم عدم تشددها في الاثباتات، ووردت مثلها لدى الدكتور ميكلوس نيزلي (طبيب مَجَري اعتقِلٍ في أوشفيتز) في كتابه **طبيب في معتقل أوشفيتز** (1961) الذي تجاهلته "الموسوعة اليهودية" (1971) و"موسوعة الهولوكوست" (1990).

رئيس لجنة التاريخ في مركز التوثيق اليهودي في باريس، جورج وليرز (Georges Wellers)، في سياق كلامه على تعديل الهيئة الإدارية في متحف أوشفيتز)، وعند استبدال لوحة "4 ملايين ضحية" بلوحة "نحو مليون"، قال: "ما كان يجب اعتماد تقديراتٍ غير مسؤولةٍ من مهجّرين قدامى" ("العالم اليهودي"، تشرين الثاني/كانون الأول - نوفمبر/ديسمبر 1990). ذلك أن عدداً من شهود الاتهام اعترفوا (بعد فوات الأوان) بأنهم شهدوا بما لم يشاهدوا. أبرزهم دلالة: الدكتور بينديكت كوتزكي (Benedict Kautzky) الذي خلف أباه في رئاسة الحزب الاشتراكي الديمقراطي النمساوي. فبعدما كان أعلن أن الحد الأقصى لاحتمال الحياة في أوشفيتز هو ثلاثة أشهر (وهو نفسه بقي محتجزاً فيه ثلاث سنوات) قال عن غرف الغاز (في كتابه **الشيطان والملعون** (سويسرا 1946): "أنا لم أرها، لكن أشخاصاً أثق بهم أكدوا لي وجودها".

المؤرخ الفرنسي الكبير ميشال دو بوار (Michel de Bouard)، عميد كلية كان (Caen)، وهو معتقل قديم في ماتهاوزن، كتب في جريدة (France Ouest يومي 2 و8/3/ 1986): "في البحث الذي أعطيته عن ماتهاوزن سنة 1945، ذكرت غرف الغاز مرتين، لا من معرفتي

بوجودها خلال أسري في المعسكر، فلم يكن أحد هناك يفكر بوجودها، بل من معلومة تلقيتها بعد الحرب".

الأمر الوحيد الثابت، أن هتلر كان يدمج أعداداً كبيرة من المعارضين (شيوعيين تحديداً) واليهود. وكان شعاره "البولشفية-اليهودية" يؤول به الى كره اليهود قدْرَ كرهه البولشفيين والسلافيين: فهم يشكّلون عدوه الأساسي: الشيوعية، مع تروتسكي في روسيا، ومع بيلا كون (Bela Kun) في هنغاريا، ومع ليبنخت وروزا لوكسمبورغ في ألمانيا. (لم يكن ذلك يمنعه من اتهام اليهود بأنهم أسياد الرأسمالية أيضاً). ليس المقصود إذاً التقليل من أهمية الجرائم التي ارتكبها هتلر ضد اليهود وضد معارضيه البولشيفيين أو من يعتبرهم كذلك، وإنما تثبيتُ أن عدد الضحايا والأساليب الصناعية التي استعملت في المجزرة، موضوع بحث علمي لا موضع استغلال لصالح سياسة الحرب.

ملاحظة هامشية حول غرف الغاز: بائسٌ مسكين خدعته وسائل الإعلام الحاقدة الموجَّهة ضدي، كتب في تهديدي بالموت أنني أنكر وجود معسكرات الاعتقال (وأنا عشتُ فيها 33 شهراً). وآخرون لا يعذرهم الجهل، يقاضونني بأن كتابي ينكر وجود غرف الغاز، رغم الحقيقة الجلية التي من خلالها طالبتُ باستقصاء علمي وعلني في هذه المسألة، لأمرين:

1- مع أنني لست كيميائياً ولا مهندساً، أوردت في كتابي نظريات لويختر (Leuchter) الاختصاصي في إعدام المحكومين بالغاز في الولايات المتحدة، وأشرتُ الى المعاينات الناقضة التي طلبها متحف أوشفيتز من مختبرات كراكوفيا وفييناّ وكانت أكّدت تحاليل لويختر في جوهر الأمر. وقلتُ إن الفيلم الوحيد الذي عرض على القضاة في محكمة نورمبرغ أظهر غرفة الغاز في داشو (Dachau). وعن مارتان بروزرا (Martin Brozrat) من معهد التاريخ الحديث في ميونيخ (أصبح مديره في 1960/8/22) أنّ: **غرفة الغاز في داشو لم تستكمَل يوماً ولم تعمل أبداً**، مع أنها ظهرت في الفيلم منتهية. هذا يعني أن الفيلم ركّبته

الأجهزة الأميركية في داشو وجيء بسياح لمشاهدته، لأن محكمة نورمبرغ أتاحت أثناء المحاكمة الاستماع الى شهادات من "عاينوا" الإعدام بالغاز في معسكرات الرايخ. وما إلاّ في 1950/8/19 حتى نشر بروزرا في جريدة Die-Zeit قوله: "لم يعدم بالغاز في داشو ولا في برغن-بلسن ولا في بوخنوالد (Buchenwald) أيٌّ يهودي أو أيٌّ محتجز آخر"، ولكنه أضاف "وإنما فقط في الأراضي البولونية المحتلة".

وثمة شهود عاينوا الإعدام في معسكرات الغرب كما في معسكرات الشرق، مثل هارلي شوكروس (Harley Shawcross) الذي ذكر في نورمبرغ (1946/7/26) وجود "غرف الغاز، ليس فقط في أوشفيتز وتريبلينكا (Treblinka)، بل أيضاً في داشو". وهو لم يَنْفِ وجود أي غرفة غاز، لذلك لم أعتمد هذا النفي، بل طلبتُ بحثاً علمياً وعلنياً "لإثباتِ سلاحِ الجريمة بشكل دامغ" (ص163). إلاّ أن هذا البحث كان يُرفَض دائماً باستمرار، وأكثر: كان يُقمَع الخبراء.

2- السبب الآخر لمطالبتي بالبحث في الطرق التي أدت الى مجازر ثابتة (من دون التعلق بها حتى الهاجس) أنْ لم يجد أحدٌ بعدُ أيَّ أثرٍ لوسيلة القتل هذه لدى أي من المشاهير الذين انتصروا على هتلرٍ وفضحوا وحشيته: فلا كلمة عن غرف الغاز في **مذكرات الحرب** لتشرشل، أو في **الحملة الصليبية على أوروبا** لآيزنهاور، أو في **مذكرات** الجنرال ديغول.

ولا جواب عن هذا السؤال حتى لدى رئيس لجنة تاريخ الترحيل المؤرخ الرصين ريفيه ريمون (Revé Rémond) في كتابيه الأساسيين: "مدخل الى تاريخ عصرنا" (1960) و"القرن العشرون من 1914 حتى أيامنا" (1974، وهو في ألف صفحة). ومن الضروري الإجابة عن هذا السؤال بتحليل نقدي واضح لا ينطلق من أي تأكيدٍ أو نفي مسبق، لاستطلاع كل أساليب التعذيب والقتل التي استعملها هتلر ضد معارضيه.

واللافت أن غولدهاغن، أحد أشرس الصهيونيين بين المؤرخين الأميركيين (في كتابه **جلادو هتلر المتطوعون** أحد أكثر الكتب الأكثر رواجاً في أميركا بفضل أوركسترا المديح الإعلامي حوله) يقول: "كانت غرف الغاز في معسكرات الموت دائماً تشغل أصحاب الرأي والمؤرخين. ولفتُ الانتباه الى هذه المنشآت الصناعية أثّر سلبياً بتحويل الانتباه عن مؤسسات أخرى للإبادة أقلّ شهرة وأكثر بعداً عن العين"... و"خلافاً لما يقوله المؤرخون وما يعتقده الرأي العام، فالقتل بالغاز هو **ظاهرة ثانوية**".

أردت أن أتحقق مما عناه غولدهاغن بـ **ظاهرة ثانوية**، فوجدتُ في موسوعة "بريتانيكا" أنها تعني **ظاهرة ثانوية** ناتجة عن ظاهرة أخرى تصاحبها بدون تأثير سببي"). ووجدتُ في قاموس "روبير" تفاصيل أكثر دقة، تميز بين المعنى الطبي (عارض إضافي يُلحق بالعوارض الجوهرية)، والمعنى الفلسفي (ظاهرة إضافية ترافق الظاهرة الجوهرية، وهي ذات تأثير طفيف على ظهورها أو توسّعها). وعندها استغربت ألاّ يكون غولدهاغن تعرض للذين يتهموننا بالتقليل من أهمية جرائم هتلر، مع أننا قلنا أقل منه.

إن التعلق، حتى الهاجس، بهذا الوجه من المجزرة يقلّل من أثر وسائلَ إجراميةٍ أخرى. فهذا تقرير بولوني صدر في آب/أغسطس 1942 حول تريبلينكا لا يذكر غرفَ الغاز، بل غرفَ بخار الماء المغليّ المجهزةَ بِمِرجَل (قبلتها محكمة نورمبرغ في 1945/12/14). وهذه جريدة "نيويورك تايمز" (1942/6/3) تذكر "مبنى كان يُعْدَمُ فيه يومياً 1000 يهودي رمياً بالرصاص". وفي 1943/2/7 ذكرت الجريدة "محطاتِ تسميم الدم في بولونيا المحتلة". وهذا ستيفان زنده (Stefan Szende) في كتابه عن اليهود في بولندا (كانون الأول/ديسمبر 1945) يقول إنهم "كانوا يُجبَرون على الدخول في حوض ماء حيث يصعقهم تيار كهربائي عالي التوتر"، ويستنتج: "هكذا حُلّت مشكلة إعدام ملايين الناس". وهذا يان كارسكي (Jan Karsky) في كتابه **قصة دولة سرية** (ترجم عام 1948 الى الفرنسية بعنوان **شهادة أمام العالم**) يخبر عن

"الكلس الحارق المنثور في مقطورات كُدِّست فيها الضحايا". وفي تقرير آخر (تشرين الثاني/نوفمبر 1942) لا يعود كارسكي يذكر قطارات الموت والكلس الحارق، بل "إعدام الضحايا بالصدمة الكهربائية، لا في حوض ماء هذه المرة بل في كوخٍ أرضُهُ معدنية".

لا يمكن الحُكْمُ على صحة كل ذلك أو خطإه، من دون تحليل تاريخي نقدي عميق، لذلك لا أُنكر أو أُثبت أمراً قبل إجراء نقاشٍ حقيقي مع اختصاصين في كلٍّ من هذه الأساليب. لكن الثابت الدامغ عندي: التقليل من شأن الجريمة الأبشع: جريمة القتل البطيء (نجدُ ناجينَ منها أحياءَ بعد، ويمكن أن يُدلوا بشهادتهم)، وترك الكلامُ على جرائم أخرى لم يعد ممكناً لأي ضحية أن تبرز إثباتاً لها، لأن الموت فيها كان فورياً بدون أية فرصةٍ للنجاة.

هذا التقليل من الجريمة الأبشع، ورد في تزوير تقرير مؤتمر فانسي الذي عقده في 1942/1/20 مسؤولون هتلريون كبار قرروا خلاله (كما ظل معلومةً "رسمية" حتى 1984) إبادة اليهود الأوروبيين. لكن يهودا باور (Yehuda Bauer) في **الجريدة اليهودية الكندية** (1992/1/30) ذكر أن "تفسير تقرير فانسي غبي". وأحدث ما صدر عن الناطق باسم "جماعة النزعة **اللاتعديلية**" جان كلود بريساك، مؤكداً هذه العودة عن التصلّب، قوله: "إذا كان التحضير يومها لدفع اليهود نحو الشرق، فإن أحداً لم يتكلم عن تصفية صناعية..." (**محارق أوشفيتز**). وفي ثَبْتِ تسلسل الأحداث (في آخر الكتاب) يشير عند تاريخ 1992/1/20 الى **مؤتمر فانسي حول دفع اليهود الى الشرق**. من هنا، إذا ثُبِّتت مقررات مؤتمر فانسي (ليس لنشر نصّها مرجعٌ رسمي)، ففيها عرضٌ لأسلوب قتل جماعي أكثر هولاً من غرف الغاز: "وفي بحثٍ عن حل نهائي، يُقادِ اليهود نحو الشرق لاستغلال عملهم، ويُقسمون بحسب الجنس رجالاً ونساءً. واليهود القادرون على العمل، يُنقلون طوابير حاشدة الى مناطق الأشغال الصعبة لكي يبنوا الطرقات، وهناك حتماً يفنى **عدد كبير منهم طبيعياً بحكم الإرهاق**".

وعن غولدهاغن أن هذا الأسلوب في التصفية أُخفِيَ بإبراز غرف الغاز، لأن عليه إثباتاتٍ حسيةً (الورَش) وشهاداتٍ تاريخيةً (من الناجين). فالحاجة الى اليد العاملة أبّان الحرب ضد الاتحاد السوفياتي، سبّبت موت الكثير من العمّال بسبب الإرهاق والجوع ووباء التيفوس الذي يتفشى في هذه الحالات من الانهيار.

هنا ألتقي مع رايتلنغر في استنتاجه أنْ: "يجب اعتبارُ الأرقام تكهّناتٍ، بسبب فقدان المعلومات الموثوقة"، و"إذا تمَّ البحث في أمر هؤلاء الضحايا، وجدنا أن أكثر من ثلث اليهود المفقودين في أوروبا لم يمت من جرّاء التعذيب الجسدي المباشر، بل من الأشغال الشّاقة والجوع وغياب الاسعافات. فمعتقل أوشفيتز لا يشكّل أكثر من خمسِ عدد الضحايا، رغم دلالاته **الرمزية** الواسعة". إن اختلاف أساليب القتل والإبادة (لا أثبت أو أنكر أياً منها) تتطلب عملاً جدياً من التحليل النقدي، بدونه "نعطي انطباعاً **بأن لدينا ما نخفيه**"، كما قالت سيمون فايل (Simone Veil) في أثناء التصويت على قانون غيسو (Gayssot) الذي حرَّم البحث في أي تحليل.

كل ذلك يتيح الكشف على أشكال القتل الحقيقي، وفصلها عما يشوب الحروب من أخبار كاذبة، تجدَّدت في الحرب الأخيرة. فقصة الصابون المصنوع من الدهون البشرية تُجدّد خبراً كاذباً من الحرب العالمية الأولى. ويعترف لاكور (Laqueur) في كتابه: "في أواسط العشرينات، وقف آوستن تشامبرلن (أمين سر الدولة في وزارة الخارجية) معترفاً في البرلمان بأنَّ قصة مصنع الجثث مختَلَقَة. وفي شباط/فبراير 1938، عشية الحرب الثانية، أعلن هارولد نيكولسن أمام مجلس العموم: "إننا بالغنا في الكذب"، وأضاف أن تلك الأكاذيب أضرَّت بريطانيا العظمى كثيراً وهو يأمل ألاّ يشارك من جديد في حملات دعائية مماثلة".

ومن الأخبار الملفقة التي أقلقت المروِّج سيمون فيزنتال (Simon Wiesenthal): سنة 1946 أدخل على غرف الإعدام تعديلاً بجعْلِ حُفرٍ

صغيرة يُجمَع فيها دهن اليهود المقتولين لكي يُصنع منه الصابون. وكانت كل صابونة تحمل أحرف RJF (دهنٌ يهوديٌّ صافٍ). ووافقت محكمة نورمبرغ على طلب تحليل كيمائي لنماذج من هذا الصابون. واليوم، تصدر عن مؤسسة ياد فاشم (Yad Vachem) الحقيقة التالية: لم يُصنع أيُّ صابون من دهن المحتجزين. كل هذا الاختلاق يعود الى لُبْس (مقصود أو غير مقصود) بين أحرف RJF وأحرف RIF (إنتاجٌ صناعي).

مثل هذا الخداع يقلّل من شأن جرائم هتلر ويزيد من الشك: إذا كانت هذه الأخبار كاذبة ملفقة، فقد يكون الكثير غيرُها كاذباً ملفّقاً أيضاً. وطالما أن بجمل القضايا التي طرحتها الجزرة "لا تطرح على بساط المناقشة الحرّة، فإن الشك سيبقى قائماً". ولذا ختمتُ كتابي "الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل" بما يلي: "لا اتهام ضد الهتلرية أفعل من إثبات الحقيقة التاريخية. وهذا ما رمينا الى الاسهام به من فتحنا هذا الملف". فأين، في هذا، "التخفيف" الذي رُمِيْتُ به حتى مسٌّ شرفي، وأنا أكرر في كتابي أن "جرائم هتلر الكبيرة لا تحتاج الى أية تكذيب لفضح قسوتها"، وفي مكان آخر: "تلك كانت مسيرة الشهداء والمرحّلين اليهود والسلافيين، ووحشية الأسياد الهتلريين الذين كانوا يعاملونهم كعبيدٍ مجرّدين من كل قيمة إنسانية".

الرابعة والأخيرة: رفض نقد النصوص: الظاهرة نفسها تتكرَّر حول نقد النصوص بالمقارنة بين تلك التي يمكن اعتبارها إثباتاً على إرادة الإبادة، وتلك التي تؤكد نية طرد اليهود من ألمانيا أولاً ثمَّ من أوروبا المحتلة.

بالنسبة الى الفئة الأولى، الأمور واضحة: فغالباً ما يُذكر عجيج هتلر وغطرسته قبل وصوله الى السلطة للإيحاء بأنْ كان لديه مخطط مسبقٌ لإبادة العرق اليهودي، كما ورد فعلاً في إحدى خطبه، مع أنّ جوزف بيليغ (Joseph Billig) في كتابه **الحل النهائي والمسألة اليهودية** (1977) - محاولاً التخفيف من جرائم هتلر - يقدّر أن كلمة

"Vernichtung" لم يَعْنِ بها هتلر وجود نيـةٍ لديـه بالإبـادة، بـل "تقليـص دور اليهود في أوروبا".

أمـا الخـلافُ بـين المؤرخـين الصهاينـة، مـن قصديـين (Intentionalistes) ينسبون الى هتلر مخططاً لإبادة اليهودية فـور استلامه السلطة، ووظيفيين (Fonctionnalistes) يعزون ظهوره الى وقائع الحـرب، فَحُسِمَ بتَوَصُّل الفريقين الى توحيد تاريخ وضع المخطط: دخول الحـرب ضد الاتحاد السوفياتي. وبعدما كـان بولياكوف قـال في **كتـاب الكُـرْه** (1951): "نؤكّد أنَّ هتلر اتخذ قرار الإبادة في مطلع 1941"، عاد فسحب هذا التـأكيد سنة 1991 (في كتابـه "إبـادة اليهـود: تـاريخ ومجـادلات") معترفاً بأنه وقع في "نوع من ضغط الوشاية"، وأنه تبنى هذا التأكيد على ذمّة شهاداتٍ وصلته بالتواتر".

من هذه النصوص حول اختلاف القرارات المؤدية الى قرار الإبادة، نستنتج أولاً أنْ ليس لهتلر، أو لأي مسؤول كبير في نظامه، نصٌّ صريـحٌ بقرار الإبادة. وكان عضو مركز التوثيق في تل أبيـب الدكتـور كوبـوفي (Kubovy)، اعترف منذ 1960 أن "لا وثيقة موقّعة من هتلر أو هيمـلر أو هـايدريش تنـص علـى إبـادة اليهـود". والأمـر نفسـه تذكـره لوسـي دافيدوفيتش في كتابها **الحرب علـى اليهـود** (1975). وسنة 1981 أكّـد لاكور أنْ "لم يجد أحدٌ حتى اليوم أمراً كتبه هتلر بقتل الجماعة اليهوديـة الأوروبية، بل قد لا يكون هذا الأمر صـدر إطلاقـاً" (**السرّ الرهيـب**- فرانكفورت 1981). وبعد مؤتمر في السوربون سنة 1992 لمحاربـة النزعـة التعديلية، أعلن ريمون آرون وفرنسوا فوريه في ختام مؤتمرهما الصحفي: "رغم كل الأبحاث المعمّقة الموثّقـة، لم يجـد أحـدٌ إطلاقـاً أمـراً مـن هتـلر بإبادة اليهود". ومنذ ذلك الوقـت، يصـرُّ المعـاندون علـى استخدام لغة **مرمَّزة** يمكنها تقويـلُ أيٍّ كـانَ أيَّ قـول، شـرط وضـع الإنهـاء بالخاتمـة المضمَرَة مسبقاً: الإبادة، مع أنها لا تظهر في أي نصّ، بل على العكـس: تنقضها نصوص متعددة. على أيِّ حـال، خـارج هـذا الـرأي المسبق، لم تصلْنا أية حجةٍ تثبت وجود هذا **الترميز**. فإبّـان الاحتـلال، كـان يمكـن لشيفرة "حيّوا الخالة كلير" من لندن الى المقاومة أن تعني "دمِّروا الجسر".

إلاّ أن فرضية اللغة المرمّزة لا تستند الى شيء كي تتوصل الى رأي مسبق. فهذه آنا آرندت، بتفكيرها السليم الواضح ونبرتها الساخرة، تستبعد إمكان إخفاء مشروع بهذه الضخامة (إبادة مئات الألوف من الأشخاص) يفترض تنظيماً لا بوليسياً فحسب، بل صناعياً يستدعي عدداً كبيراً من المنفذين. وتقول: "كان إيخمان أحد أوائل صغار المسؤولين الذين أعلموا بسرّ الدولة هذا (الذي يبقى سر دولة حتى بعد نشر الخبر في كل المؤسسات التي كانت تستخدم عمالاً وعبيداً في كل مجموعات الضباط في القوات المسلحة). ولكن السرّ كان يُحفظ لهدف عملي: فالذين أُبلغوا أوامر الفوهرر لم يكونوا "مجرد ناقلي أوامر" (أو مكلفين بمهمة) بل كانوا يرقّون الى رتبة "حافظي سر". (**آيخمان في أورشليم**).

وهذا جان كلود بريساك، آخر مهاجمي النزعة **التعديلية** زمنياً، يجزم: "لم يحصل أيُّ تمويه إطلاقاً، خلافاً لما يقال" (عن مقال نشره لوران غرايسهامر في "لو موند" 26 و27 /1993/9). وبريساك نفسه تعمّد الالتباس، مستنداً الى أن الرأي العام يخلط غالباً بين غرفة الغاز والمحرقة، فكتب أولاً كتاباً لجمهور محدودٍ يساوره الشك: **أوشفيتز وعمليات غرف الغاز**. وعندما نشر هذا الكتاب بصيغة مبسطة للجمهور الفرنسي الواسع، عَنْوَنَهُ: **محارق أوشفيتز**. ولكي ينفي ضرورة التحجج بسر اللغة المرمَّزة، نشر رسالة (3/3/ 1943) من مؤسسة Toph Und Söhn (المُمَوِّنة بالزيكلون ب) حول إرسال أجهزة كاشفة للغاز. لكن رسالة كهذه قد تتعلق بأي جهاز أمن مرافق لاستعمال غازٍ سام مهما كانت وجهة استعماله.

وهكذا، بات يجب خلط معاني جميع الكلمات لتَبَنّي مقولة اللغة المرمّزة. من هنا يناقض بريساك مثلاً الشروحات المخفية عن الاجراءات الخاصة فيقول: "ليس لهذه الكلمات مقاصد مجرمة". وهي إجراءات قد تعني التوصية، كإرسال شخصياتٍ أو عجزة الى Theresienstadt حيث النظام أقل قسوة من المعسكرات الأخرى. وفي السياق نفسه، يمكن التحفظ على كلمات أخرى حُوِّر معناها. مثلاً كلمة Aussrotung

"اقتلع" التي استعملها الهتلريون لاقتلاع المسيحية (ولا يعني ذلك قتل المسيحيين)، ترجمَت بـ"أباد" عندما تعلّق الأمر باليهود. وما حدث خلال محاكمة نورمبرغ يُظهر آلية التزوير: ففي رسالة وجهها غورينغ الى هايدريش استعمل عبارة **تصفية المشكلة** ليعني **تصفية من هم موضوع المشكلة**. وحين ضبط غورينغ القاضي جاكسون بالجرم المشهود في ترجمته المتحيِّزة (نورمبرغ 20/3/ 1946) اضطر القاضي الى الإقرار بذلك. ولكن الصحافة لم تنقل كلمة واحدة عن هذا الحدث الذي كان سيهدم نظرية بكاملها.

أما معنى تعبير "الحل النهائي"، ففسّرته نصوصٌ كثيرة بأنه قرار النازيين المهين بطرد اليهود من الأراضي الواقعة تحت سيطرتهم. ومن المرّات التي ظهر فيها تعبير "الحل النهائي" في قرارات النازيين المتعلقة بالمسألة اليهودية: ورود قرار هتلر الرهيب (بطرد اليهود من ألمانيا فأوروبا عندما ساد عليها)، في نظام الحزب الاشتراكي الوطني (المادة 4): "ما من يهودي يمكنه أن يكون مواطناً كامل الحقوق". والمادة 24 تحرمهم من بعض الوظائف. وكان هيملر (في أيار/مايو 1940) قبل هزيمة فرنسا، كتب: "آمل أن أرى كلمة يهودي تمحى نهائياً، بنقل كل اليهود الى أفريقيا أو الى مستعمرة". وذلك كان أسلوب النازيين الدائم. وفي 3/7/1940، كتب المسؤول عن الشؤون اليهودية في وزارة الخارجية فرانتز رادماخر (Franz Rademacher) تقريراً جاء فيه: "الانتصار الوشيك سيعطي ألمانيا إمكان حلّ المسألة اليهودية في أوروبا، بأنْ: كل اليهود خارج أوروبا".

وخلال هدنة حزيران/يونيو 1940 انطلقت فكرة إبعاد اليهود الى مدغشقر، مشروعاً صعب التحقيق بسبب تفوق البحرية الانكليزية. كان يجب إيجاد مشروع حلّ بديل مؤقت. فالمسألة اليهودية كانت تطرح ذلك الحين على مستوى أوروبا التي احتلها النازيون، والانتصارات التي تحققت في أوروبا سمحت بالتفكير في حلّ آخر، فأعلن الفوهرر في 2 كانون الثاني/يناير 1942: "على اليهود أن يغادروا أوروبا. والأفضل أن يذهبوا الى روسيا". ورأينا سابقاً حل مؤتمر وانسي

(كانون الثاني/يناير 1942) بتوجيه الى الشرق لاستغلال عملهم، وجاء في المحضر: يتولى الفوهرر وقائد البوليس الألماني، مسؤولية الاجراءات الضرورية للحلّ النهائي، **بصرف النظر عن الحدود الجغرافية**. غير أن تحقيق الحلّ النهائي لم يكن ممكناً إلاّ بعد الحرب، وفي اتجاه واحد: طرد كلّ اليهود من أوروبا. وهذا ما صارح هتلر به السفير آبتز (Abetz) في فرنسا، بأنه عازم على إفراغ أوروبا من اليهود بعد الحرب. (**وثائق حول سياسة ألمانيا الخارجية 1918-1945**). ومنذ 1940/6/24 كتب هايدريش يُعْلِم ريبنتروب بعزمه على تحقيق الحلّ النهائي في أقرب وقت: "إن المعضلة العامةَ التي يشكّلها وجود 3 ملايين و 400ألف يهودي حالياً على الأراضي الموضوعة تحت الحكم الألماني لم تَعُد تُحَلُّ بعد الآن بالهجرة: بات ضرورياً إيجاد حلّ نهائي **ذي علاقة بالأرض**". (محاكمة آيخمان في أورشليم).

في الفترة عينها وجَّه هيملر مذكّرةً الى هتلر، خلاصتها: "آمل أن أرى المسألة اليهودية في حلّ نهائي بهجرة اليهود جميعاً الى أفريقيا أو الى مستعمرة". وتبنى هتلر هذا الاقتراح، بدليل ما كتبه المسؤول في وزارة الخارجية رادماخر (1942/2/10) في رسالة رسمية:"يسّرت لنا الحرب ضد الاتحاد السوفياتي سيطرةً على **أرض جديدة تلزمنا للحلّ النهائي**، فقرر الفوهرر نقل اليهود لا الى مدغشقر بل الى الشرق. **ولم يعد لازماً تفكيرنا بمدغشقر من أجل الحلّ النهائي**". (محاكمة ويلهلم ستراس، كما يذكرها رايتلنغر في كتابه **الحل النهائي** حيث يؤوّل كلماتٍ بدون أن يعطي لها أي تبرير).

ومن الوقائع الأخرى التي تثبت أن إبادة اليهود لم تكن هدف هتلر الأساسي، هذا ناحوم غولدمان (كان لفترة طويلة رئيس مؤتمر اليهود العالمي) يقول في كتابه: **التناقض اليهودي** (1976): "سنة 1945 كان نحو 600 ألف يهودي نجوا من معسكرات الاعتقال ولا يجدون بلداً يقبل استقبالهم". وآنا آرندت، في كتابها **آيخمان في القدس** تقول: "كان في نيسان/أبريل 1944، قبل شهرين من إنزال النورماندي، لا يزال

في فرنسا نحو 250 ألف يهـودي، وعاشـوا فيهـا". وكـان ذلـك بعـد 11 عاماً من السيطرة الهتلرية المطلقة.

كلّ هذا يقود الى طرح أسئلةٍ يجيب عنهـا في القـدس مدير قسـم الدراسات الجرمانية في الجامعة العبرية البروفسور زيمرمـان خـلال مقابلـة أجرتها معه في نيسان/أبريل 1995 جريدة "يروشالايِيم". فعن سؤال: "في كتابٍ "كفـاحي" يُعتبر اليهـود جرثومـة يجب محقهـا، والكتـاب معتَبَرٌ مخططاً عملانياً وضعـه هتـلر لإبـادة اليهـود"، أجـاب: "إذاً، لمـاذا انتظر سنتين ونصف السنة ليَسُنَّ قوانـين نورمـبرغ؟ لـو كـان يريـد مسبقاً أن يدمر اليهود، هل كان بحاجة الى القوانين؟

إن التقليل من أهمية جرائم هتـلر يعـني تحجيمَهـا الى مجـرد حـرب ضد اليهود، بينما تلك الاضطهادات المؤكدة ضد اليهـود ليسـت سـوى وجه من مخطط أوسع بكثير يُسيطر عليه اهتمامٌ أكبر: تدمير البولشفية.

القسم الثاني: الإهانة الأخيرة

مليون يهودي ضد 10 آلاف شاحنة، وسلام منفصل مع هتلر

1- أقوى الحجج على أن هدف هتلر الرئيسي كان تدمير الاتحاد السوفياتي: المساومة التي جرت في نيسان/أبريل 1944 بين آيخمان والمندوب الصهيوني براند، وعرض فيها آيخمان مبادلة مليون يهودي بـ10 آلاف شاحنة (باور: **يهود للبيع** باريس 1996). ورواية باور مقنعة لأن هدفَ كتابه إظهارُ أن حرب هتلر كانت "حرباً على اليهود" لا على الشيوعية. وهو يُعلمنا أن آيخمان عرض (1944) على المندوب الصهيوني براند مبادلة مليون يهودي بـ10 آلاف شاحنة تستعمل فقط على الجبهة الروسية. وينشر باور ملاحظةً شخصية دوّنها هيملر في 1942/12/10: "سألت الفوهرر رأيه في إطلاق اليهود مقابل فدية، فأعطاني صلاحية تامة لأوافق على أية عملية من هذا النوع". وعن باور أيضاً: "يُجْمِعُ المؤرخون على أن هتلر كان يعد سلاماً منفصلاً مع الشرق، كي يركز كل قواه على مواجهة التهديد البولشفي".

ويؤكد باور إيمان فون بابن (Von Papen) بتوافق مستقبلي بين الولايات المتحدة وألمانيا على إقامة سدّ في وجه الشيوعية. ففكرة النازيين كانت "استغلال الأقنية اليهودية للاتصال بالقوى الغربية"، وهي فكرة سيطرت على ما عداها لأن النازيين كانوا يعرفون ثقل اللوبي الصهيوني لدى القادة الغربيين. ويضيف باور: "كان النازيون يعرفون أن حكومة صاحبة الجلالة وحكومة الولايات المتحدة ضعيفتان سياسياً، عكس الروس، أمام ضغوط اليهود عليهما". وكان القادة الهتلريون يضعون لاساميّتهم في المرتبة الثانية كما يشير باور: "مع نهاية 1944 توضّحت إرادة هيملر بإقامة الاتصال مع الغرب عن طريق اليهود وسواهم". وأكثر: يَذْكر باور "مبادلة اليهود بمعدات ستراتيجية، أو حتى بإقامةِ اتصالاتٍ دبلوماسيةٍ مع الغرب قد تؤدي الى سلام منفصل، أو حتى- وهو المفضّل - تؤدي الى حرب تجمع الألمان والغربيين ضد السوفيات".

لكن تلك المحادثات بين النازيين والصهيونيين فشلت لأن الأميركيين والإنكليز أخطروا السوفيات لأنهم، بدونهم، لا يمكنهم أن يهزموا هتلر.

2 - هذا يؤكد أيضاً أن أولوية هتلر لم تكن إبادة اليهود وإنما مناهضةٌ للبولشفية كلَّفتهُ حتى 1939 تساهل الغربيين، بل مسايرتهم إذ رأوا فيه الحصن الأمثل لمواجهتها.

في ستالينغراد، أصيب النمر النازي بجرح مميت، فإذا الجيش السوفياتي سنة 1944 يتحمّل وطأة 236 فرقة نازية مع توابعها، بينما كانت 19 فرقة ألمانية فقط تواجه الجيوش الأميركية في إيطاليا، و64 فرقة فُصِلَت من فرنسا الى النروج. ويعترف باور بإن "الدور الأساسي للاتحاد السوفياتي في الصراع مع ألمانيا النازية كان الدعم الرئيسي لصمود الحلفاء. فهُزم الفيرماخت (Werhrmacht) في روسيا أمام الجيش الأحمر، وأسهم اجتياح فرنسا في 1944/6/6 في تثبيت النصر النهائي إنما لم يكن العامل الفاصل. فلولا مشقات السوفيات وبطولتهم الفائقة الوصف، كان يمكن أن تستمر الحرب سنوات، وليس مؤكداً أنها ستكون رابحة".

هذه الحلقة الأخيرة من التعاون بين الصهيونيين وهتلر تُظهر أنّ:

1) هتلر في نيسان/أبريل 1944 (بعد 11 عاماً من سلطته المطلقة) لم يُبدِ اليهود وكان لديه منهم مليونٌ على الأقل.

2) الهدف الدائم للنازيين كان تدمير الاتحاد السوفياتي، بإرادةٍ ثابتة جعلت الأميرالٍ دونيتزٍ يعلن في 1945/5/8: "يجب أن نتعاون مع القوى الغربية، سبيلاً وحيداً لاسترجاع أرضنا لاحقاً من الروس". وهو قال ذلك إبَّان الاستسلام غير المشروط الذي وقعته البعثات الألمانية مخوَّلَةَ الصلاحيات من الأميرال دونيتز، القائد الأعلى بعد موت هتلر.

الفصل الثالث

السياسة الاسرائيلية
مفجرٍ حرب عالمية جديدة

المقال/البرنامج "بحثٌ حول التاريخ العام"، كتبه صموئيل هانتنغتون (بمجلة "تعليق" (Commentaire) عددها السادس- صيف 1994) حول كتاب **صدمة الحضارات** هو بالضبط خطٌ تفكيري حول الدور الجديد للسياسة الاسرائيلية لا في الشرق الأدنى بل في سياسة الولايات المتحدة للسيطرة العالمية.

فحتى الآن، كان البنتاغون عبَّر عن يوتوبيا متفائلة لحلمه بالسيطرة على العالم، كما جاء في كتاب فوكوياما **نهاية التاريخ** بفرض أسوأ نظرية متحررة للسيطرة على العالم: اعتماد السوق الموحَّدة.

بحثُ صموئيل هانتنغتون أدقُّ من ذلك: يُظهر عوائق تحقيق هذا النظام العالمي الجديد. ومنذ نهاية الحرب الثانية، أي طوال نصف قرن، ظلّت سياسة زيادة التسلّح الأميركية تتذرّع بالتهديد السوفياتي.

تلك السياسة، بحُجّة العمق الأمني الأميركي، بررت اعتداءاتٍ في كل مكان من العالم، حتى فيتنام وكوريا، ولدعم ديكتاتورياتٍ عسكرية في أميركا اللاتينية (الفيليبين أيام ماركوس) والتمييزِ العنصريِّ في جنوب أفريقيا سابقاً.

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، ولِدَتْ حاجةٌ الى بديل لدور الشرير (ولأمبراطورية الشرّ) يسبب الحرب في ثلاث قارات، فكان الإسلام، ذريعةً لتبرير مواصلة سباق التسلّح (بل لتسريعه) لمواجهة التهديد العالمي بالإرهاب، ولتبرير "التدخل" الاقتصادي والعسكري في كل مكان من العالم.

من هنا أن نظريات هانتنغتون في "صدمة الحضارات" قاعدة نظرية لهذا التوجه السْتراتيجي الجديد. فاستنتاجاته تكشف أموراً كثيرة: "ستسيطر صدمة الحضارات على السياسة العالمية. وخطوط الخللِ بين الحضارات ستكون خطوط الجبهات". ويُثبت خلفية تحليلِهِ تَوَجُّهَ السياسة العالمية ببضع نقاط: "تجميد نموِّ القوة العسكرية في الدول الإسلامية والكونفوشية، عدم الإفراط في تقليص القدرات العسكرية

الغربية والحفاظ على التفوق العسكري في الشرق الأقصى وفي جنوب شرق أسيا، استغلال الفوارق والصراعات بين الدول الإسلامية والكونفوشية، دعم الجماعاتِ المؤيدةِ قيمَ الغرب ومصالحَهُ في الحضارات غير الغربية. نتيجة لذلك، على الغرب أن يحافظ على القوة الاقتصادية والعسكرية الضرورية لحماية مصالحه في سياق علاقاته مع هذه الحضارات".

ذلك، على الأقل، ما يمكن أن نصفه بالوضوح.

والآن، أيُّ دورٍ لإسرائيل في جغرافيا سياسيةٍ محدَّدةٍ بهذا الشكل؟

إنها تحتلّ موقعاً حاسماً في هذه المواجهة بين العالمين. فأبوها الروحي حدَّد دورَها الأساسي قبل أن تَنشأ دولتها.

فمن أجل إنشاء دولة يهودية، راح في كل خطواته لدى القوى الغربية الاستعمارية آنذاك (انكلترا، ألمانيا، إيطاليا وروسيا) يقدِّم حجَّته الكبرى: إذا حَمَت إحدى هذه القوى دولةَ اليهود، يكون لها امتيازٌ على منافِساتها، وأكثر: تشكِّل بالنسبة الى الجميع، مقرّاً في الشرق ثابتاً لدخول الاستعمار الغربي. وجاء في كتابه **الدولة اليهودية** (1895): "سنكون بعضَ سورٍ لأوروبا يواجه آسيا، وحارساً للمدنيّة متقدِّماً ضد البربرية".

وإذ كان أيزنهاور يعتبر الشرق الأوسط "أهم نقطةٍ سْتراتيجية في العالم" (كما ذكر ستيفن شبيغل في كتابه **الصراع العربي/الاسرائيلي الآخر**، منشورات جامعة شيكاغو 1985)، تصدف أنّ إسرائيل تتمتع بثلاثة:

1- موقعها السْتراتيجي على منعطف بين أوروبا وآسيا وأفريقيا.

2- موقعها الاقتصادي في قلب منطقة من العالم تحوي نصف بترول العالم "عصب النمو" (بالمعنى الغربي للكلمة).

3- وَقْع أسطورتها اللاهوتية "شعب الله المختار" تعتمدها تغطية لأطماع الغرب في موقعها السْتراتيجي والاقتصادي، وتجعل جميع

تجاوزاتها فوق كل قانونٍ وكل عقوبة، وخاصةً فوق كل قرار من المجموعة الدولية (192 قراراً ضدها في الأمم المتحدة منذ 1972، بقيَت حبراً على ورق، بحماية الفيتو الأميركي).

فماذا عن هذه النقاط الثلاث؟

1) **موقعها السْتراتيجي بين ثلاث قارات**. تقع فلسطين عند ملتقىً جغرافي واستراتيجي لثلاث قارات: أوروبا (وهي الجبهة المتقدمة منها) آسيا وأفريقيا. وهي الممر الوحيد نحو المحيط الهندي وجنوب شرق آسيا. من هنا إرادة اسرائيل السيطرة على فلسطين كلها، مرحلةً أولى من احتلال ما كان هتلر يسميه "المدى الحيوي" (أي كل الشرق الأدنى والأوسط مَن الفرات الى النيل)، وذلك بتقسيم الدول المجاورة (لبنان، سوريا، العراق، الأردن، مصر). وهي حقَّقت طموحها الأول بالتمركز في خليج العقبة المنفتح على البحر الأحمر، مع ضمانة أن يكون مضيق تيران في أيدٍ أمينة. وبالفعل، نالت الولايات المتحدة وإسرائيل هذه الضمانة ضمن اتفاق كامب ديفيد (ميونيخ المصرية) الموَقّع في الولايات المتحدة وبضغطٍ منها في 18 أيلول/سبتمبر 1977، وهو ألغى كلَّ إمكان لنشوءِ جبهةٍ موحَّدة من الدول المجاورةِ إسرائيلَ والمهدَّدَةِ بسياستها التوسعية.

النقطة الرابعة من برنامج المساعدة: بين 1948 و1952 حصلت إسرائيل وحدها على مجموعٍ ما حصلت عليه مجتمعةً خمسُ دول مشرقيةٍ (مصر، لبنان، الأردن، سوريا والعراق) يفوق عددُ سكانِها عشرين مرة عددَ سكان إسرائيل.

بعد كامب ديفيد أخذ التعاون العسكري (بدأ منذ 1961) حجماً مهماً وجاء في بروتوكول التوافق السْتراتيجي(واشنطن 1981/11/30) تسليمُ ريغن إسرائيل أسلحةً (وتحديداً 75 مطاردة "ف 16" جديدة) بكمياتٍ أكبر من تلك الواردة في اتفاقات سابقة.

كان ذلك قُبَيْل احتلال لبنان (بعد ستة أسابيع على الخروج من سيناء). وهكذا بدأ يتحقّق مشروعُ **إسرائيلَ الكبرى** وأمبراطوريةٍ فعليةٍ

في الشرق الأوسط، كما كان آرييل شارون اقترح في كانون الأول/ديسمبر 1981.

نموذج الولايات المتحدة في مطاردة الهنود غيرَ واضعةٍ حداً لتوسعها، اتخذه موشي دايان مثالاً سنة 1982.

وأضاف: "كما وثيقة إعلان استقلال أميركا لا تذكر أية حدودٍ للأرض، لسنا مضطرين الى ذكر حدودٍ لدولة إسرائيل" ("جِروزَلم بوست" 10/8/ 1967).

كل ذلك تمَّ بحمايةٍ غير مشروطةٍ من الولايات المتحدة، لم تكتفِ باستعمال حق الفيتو ضد أيِّ عقوبة، بل قضت بإرسال أسلحة الجريمة. وعن "الهيرالد تريبيون" (1982/7/22) أن "الحكومة الاسرائيلية عامئذٍ صرفت 5،5 مليارات دولار على التسلح والعتاد الحربي، ثُلثها من الخزينة الأميركية".

وتوَّج سياسةَ زيادةِ التسلُّح تجهيزٌ نووي ترفض إسرائيل أيةَ رقابة عليه، وبه (كما في كلٍّ أمر آخر) أصبحَت فوق كلّ شرعية دولية.

عن شلومو آهارونسون ("هَآرتز" 1975/6/29) أنّ "السلاح النووي إحدى وسائل تحرم العرب نهائياً من كلّ أمل بالانتصار على اسرائيل.

ويمكن كمية من القنابل الذرية أن توْقِع أضراراً بالغةً في جميع العواصم العربية، وأن تهدم سد أسوان. وبكمية أخرى إضافية، يمكننا بلوغ المدن الداخلية والمنشآت البترولية.

إن في العالم العربي نحو 100 هدفٍ يسبِّبُ تدميرُها خسارةَ العرب كلَّ ما غنموه في حرب كيبور".

هكذا، لم تعد إسرائيل مجرَّد مندوبٍ للاستعمار الغربي الجماعي تحت هيمنة أميركية، بل باتت، للولايات المتحدة، قطعة رئيسية في معادلة القوى على رقعة الشطرنج في الكوكب كله، لا في الشرق الأوسط وحسب.

2) مراقبتها الدولَ المنتجةَ النفطَ في الخليج.

في هذه السياسة العالمية، تحظى إسرائيل بدور مميز: شرطي حقول النفط في الشرق الأوسط. وهي مهمّةٌ أوكِلَتْ إليها بصلاحية أوسع، بعد سقوط شاه إيران (كان يؤمِّن للولايات المتحدة مراقبة الخليج الفارسي، وخصوصاً مضيق هرمز حيث يعبر نصف بترول العالم). إضافة الى ذلك، أوكِل إليها إضفاءُ الصفات الشيطانية على إيران الجديدة، واتهامها بقيادة الأوركسترا السِّرية للإرهاب العالمي. وتقوم إسرائيل بهذا الدور الجديد مستغِلّةً سيطرَتها على وسائل الإعلام العالمية، مما يخدم حلمها التوسعي بـ"إسرائيل الكبرى"، وهو يتوافق تماماً مع أهداف الولايات المتحدة في المنطقة.

في آب/أغسطس 1990، أرسلت الولايات المتحدة جيوشها الى المملكة العربية السعودية، فذكرت الـ"وول ستريت جورنال" (1989/8/31) أن الولايات المتحدة: "لا ترسل جيوشها الى الخليج فقط لمساعدة السعودية على مقاومة الاعتداء، بل لمساندة أكثر دولة في الأوبيك تخدم مصالح واشنطن". وذلك لإفهام العالم الثالث كله أنْ ليس مسموحاً لأي شعب، تحت طائلة تدميره كلياً، أن يرتقي الى أعلى مستوى تقني، وأن يستغل ثرواته الوطنية (البترول أساساً) بدون مراقبة القوى العظمى الأسعار، وأن يُفلِت من دِيْن لا يجرؤ على المجاهرة باسمه بعد، وتفرضه الولايات المتحدة على العالم كله: السوق الموحَّدة وعبادة المال. وبالفعل، كلّف قصف العراق (حسب الصليب الأحمر)، أكثر من 200 ألف قتيل مدني، وأدى استمرار الحصار الى موت مزيد من الأطفال بسبب فقدان التغذية والاسعافات.

3) أسطورتها اللاهوتية المستعارة عن "الشعب المختار"

المنطق التوراتي لـ"إسرائيل الكبرى"، ودعم واشنطن غير المشروط، قد يكونان مفجّر حرب عالمية ثالثة، أو **حرب حضارات** أولى، حسب تعبير هانتنغتون.

تعليقنا على ذلك، أنّ المطالبة التوراتيــة بــ"إسـرائيل الكـبرى" مـن الفرات الى النيل، وفق قراءة أصولية للتوراة (أي قراءة حرفية تحوّل أمثلة الأنبياء العظيمة الى تـاريخ قومـي بـل قَبَلي) هرطقـةٌ ضروريـةٌ للسياسـة الصهيونية، تقود الى التناقض التالي: عن احصاءات الحكومـة الاسـرائيلية أن 15٪ فقط من الإسـرائيليين متديِّنـون، ورغـم ذلـك تجـري محـاولات إقناع أكثريـةٍ اليهـود بـأن هـذه الأرض ملـك لهـم، وعدهـم بهـا إلـهٌ لا يؤمنون أصلاً به.

إن الرجوع الى النصوص التوراتية من ثوابت السياسـة الإسـرائيلية لتبرير اعتداءاتها ومجازرها. وهـي سياسـة إجراميّـة لا تسـتند الى قـاعدةٍ دينية، بـل الى قـراءة أصوليـة حرفيـة للنصـوص المقدسـة، بـاتت خداعـاً عنصرياً دموياً. فالأصولية (كما يفعل جماعة الطالبـان في شـأن القـرآن) تقوم على قراءة حرفية قَبَلية، تعتمد علـى تحويـل المثـل الى قصـة مزيفـة، فتفسر (مثلاً) وعدَ الآلهة قبائلَ البدو في الهـلال الخصيـب بـأرض خصبـةٍ لكل عائلات الأرض، على أنها هبة غير مشروطة قدَّمها إله قَبَلي امتيـازاً لشعب واحد الى الأبد، وحرم منها سائر الشعوب. من هنا قول ابراهـام هرشل في كتابه **إسرائيل صـدى الأبديـة** (1969): "دولـة اسـرائيل هـي جواب الله في أوشفيتز". وهو ما يستمر حتى اليوم، فهوذا رئيـس قسـم الأبحـاث الجرمانيـة لـدى الجامعـة العبريـة في القـدس، والاختصـاصي في دراسة النازية البروفسور موشي زيمرمان يعلـن في جريـدة "يروشـالايم" (1995/4/28 أنّ "الهولوكوسـت مـبررٌ رئيسـيٌ لإنشـاء دولـة إسرائيل"..."فثمة شريحة كاملة من الشعب اليهودي لا أتردد في وسْمِها نسخة من النازيين الألمان. أنظروا الى أولاد اليهـود سـكان المستوطنات في الجليل، إنهم يشبهون تماماً الشبان الهتلريين". وعام 1974، في جريـدة "يديعوت أحرونوت"، كان مناحيم باراش يشيد بتعاليم الحاخام موشـي بن زيـون الـذي كـان يسـتعمل النصـوص التوراتيـة لتحديـد الموقـف الاسرائيلي من الفلسطينيين "هذا الطاعون الـذي تشـجبه التـوراة، لكـي نستولي على الأرض التي وعد الربُّ بها ابرهيم. يجب أن نسير في خطى يشوع لنسيطر على أرض إسرائيل ونقطن فيها كما تأمر التوراة... ليس

من مكان على هذه الأرض لشعوب أخرى، وإنما فقط لشعب اسرائيل. علينا طرد كلّ الذين يعيشون فيها. إنها حرب مقدسة تفرضها التوراة".

بعد شهرين، كتب الحاخام إليعازر فالدمان في جريدة "نيكوراه" عن المستوطنين في شرق الأردن: "علينا، بالطبع، أن نقيم النظام في الشرق الأوسط وفي العالم. فإذا لم نضطلع نحن بهذه المسؤولية نكون خطأة لا بحق أنفسنا وحسب، بل بحق العالم. فمن سوانا يقيم النظام في العالم، والقادة الغربيون ضعيفو الشخصية". (أعادت "دافار" نشر هذا الكلام في 1982/10/8). وأضاف أحد مؤسسي الحركة، يهودا بن مئير:"لا أن نبسط سلطاننا على سوريا وتركيا وحسب، بل أن يصير دم أولادنا حارساً للعالم أجمع". وفي أيار/مايو 1993، خلال مؤتمر الليكود، اقترح آرييل شارون أن تركز اسرائيل سياستها الرسمية على مبدأ الحدود التوراتية.

هذه الهرطقة التي أسسها تيودور هرتزل، شجبها منذ ظهورها حاخامون ويهود مخلصون للإيمان ولأنبيائهم. بينهم الحاخام موشي مينوحيم (والد الموسيقي العبقري يهودي مينوحيم) صاحب كتاب: **انحطاط اليهودية**، وفيه يذكر أن انحطاط اليهودية هو في القومية الصهيونية. والعنوان الأول لكتابه كان **القومية اليهودية: جريمة ولعنة تاريخية شنيعة**، وفيه يقيم موازنة بين شمولية الأنبياء اليهود وبين تفسير قَبَلي وقومي للعهد والشعب المختار طرحه مَن رأى أنهم "برابرة قَبَليونَ مثل بن غوريون وموشي دايان وعصابة عسكرية انحرفت باسرائيل عن الخط القديم"، مما حوّل الوكالة اليهودية والمنظمات الصهيونية في العالم "أعضاء في الحكومة الاسرائيلية". وهو ما يلتقي بـ"العقيدة العنصرية نفسها التي يتميز بها اللاساميّون".

و لم ينفكّ الحاخام إلمر برغر عن التنويه بأن الوعد كان مشروطاً إذ يذكر من سفر الأحبار: "فاعملوا بفرائضي وأحكامي واحفظوها، تقيموا بالأرض آمنين". (25-18). وفي الفصل 3/26 يقول: "إن سرتم على فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتم بها (3)... أثبت عهدي معكم

(9). ومن سفر التثنية الفصل 11: "إني جاعل أمامكم اليوم بركة ولعنة (26)، البركة إن سمعتم لوصايا الرب إلهكم التي أنا آمركم بها اليوم (27)، واللعنة إن لم تسمعوا لوصايا الرب إلهكم (28)".

عام 1956 فشلت محاولةٌ (تواطؤاً مع فرنسا وإنكلترا) للاستيلاء على قناة السويس، لأن الولايات المتحدة، بحُكْم أعمالها في فيتنام وفي الشرق الأقصى (كما أوضح الجنرال ديغول لاحقاً في خطابه في بنوم بنه) لم ترضَ أن يفلت من يدها أمر مراقبة البحر الأحمر. وحفظ القادة الاسرائيليون الدرس: على العمل التوسعي التالي أن يعتمد على الولايات المتحدة وتكون لها الأفضلية فيه. من هنا نص بروتوكول التآلف السْتراتيجي (واشنطن 1981/11/30) على مدّ إسرائيل بالأسلحة، وكان غزو لبنان بعد ستة أسابيع على الخروج من سيناء، بحماية اتفاق كامب ديفيد الذي ضمَن لإسرائيل عدم فتح جبهتين عليها. ومن أصل 567 طائرة كانت تملكها اسرائيل آنذاك، 457 طائرة جاءتها من الولايات المتحدة بتمويلٍ من واشنطن على شكلِ هبات وقروض.

بعد "حرب الأيام الستة" احتلت اسرائيل كل حدود البلدان المجاورة (من لبنان الى الجولان الى شرق الأردن) وضمَّت القدس، في حين لم يتمَّ قبولها عضواً في منظمة الأمم المتحدة إلاّ بثلاثة شروط:

1- عدم المساس بوضع القدس.

2- السماح للفلسطينيين بالعودة الى منازلهم.

3- احترام حدود التقسيم.

وهكذا لم يعُد القرار الدولي سوى حبر على قطعة ورق كما كان بن غوريون قال إبَّان حرب التوسع الأولى سنة 1948.

عام 1981، قبل اجتياح لبنان، قال آرييل شارون: "في السنوات المقبلة، لن تمتد مصالح اسرائيل السْتراتيجية فقط الى البلدان العربية في حوض المتوسط، بل الى كل الشرق الأدنى، ويجب أن تمتد الى إيران والباكستان والخليج وأفريقيا وتركيا".

هذا المخطط (صدر نصُّه واضحاً بعنوان "مخططات اسرائيل الستراتيجية"، في العدد 14 -شباط/فبراير 1982- من مجلة كيفونيم (اتجاهات) التي تنشرها في القدس "المنظمة الصهيونية العالمية") يستوجب حكماً تفتيت كل البلدان المجاورة من النيل الى الفرات. لذا نشرتُ نصَّه الكامل بالعبرية في كتابي **فلسطين أرض الرسالات السماوية** (باريس 1986) وترجمته الفرنسية، وأقتطف منه هنا مقاطع أساسية.

"إن مصر، كجسم مركزيّ، باتت جثة، إذا اعتمدنا المواجهات المتصاعدة بشراسة بين المسلمين والمسيحين. لذا يجب أن يكون هدفنا السياسي للثمانينات، على الجبهة الغربية، تقسيم مصر الى مقاطعات جغرافية محددة. فإذا تمَّ تفكيكُ مصر وحرمانها من السلطة المركزية، يكون مثلها مصير بلدان أخرى (ليبيا، السودان، والأبعد منهما). وإنشاء الدولة القبطية في مصر العليا (ووحدات مناطقية صغيرة ضعيفة) هو مفتاح توسعٍ تاريخي يؤخره اليوم اتفاق السلام، ولكنه محتّم على المدى البعيد.

الجبهة الغربية تسبب مشاكل أقلَّ من الجبهة الشرقية. فتقسيم لبنان الى مقاطعات خمس، يُظهر مسبقاً ما سيحصل في مجمل العالم العربي. وانفجار سوريا والعراقَ وتحوُّلهما الى مناطق عرقية ودينية، هو على المدى البعيد، هدف رئيسيٌّ لإسرائيل، مرحلتهُ الأولى تدمير القوى العسكرية في هذه الدول.

وتفكيك التركيبات العرقية في سوريا قد يؤدي الى قيام دولة شيعية على طول الشاطئ، ودولة سنيَّة في منطقة حلب، وأخرى في دمشق، وجماعة درزية قد ترغب في إنشاء دولتها الخاصة -ربما على جولاننا- مع حوران وشمال الأردن... إن دولة مفككة كهذه هي، على المدى البعيد، ضمانة للسلام والأمن في المنطقة. وهذا هدفٌ بات في متناولنا.

العراق كذلك، الغنيّ بالبترول والممزّق بالصراعات الداخليـة، هـو في خط الرؤية الاسرائيلية. وتفكيكـه، بالنسبة إلينـا، أهـم مـن تفكيـك سوريا، لأنه على المدى القريب هو الذي يشكّل أطر تهديد لإسرائيل".

لتحقيق هذا المخطط الواسع، يستعين القادة الإسرائيليون بمساعدة أميركية غير محدودة.

هذا المخطـط، لإشعال الشرق الأوسط كلّه (بأخطاره العالميـة الواضحة) – حتى قبل أن يصدر واضحاً بهذه الوقاحة – هـو الـذي يوجّه سياسة الحرب الاسـرائيلية كلهـا، ويخرق كـل قـرارات المجموعـة الدوليـة للأمـم المتحـدة، بدعـم غـير مشـروط مـن الولايـات المتحـدة. فلنكتفِ بالتذكير أن دولة اسرائيل، بحجّة حماية أمنهـا، تحتـل منـذ 1968 حدود كل جيرانها، وتحديداً لبنان وسوريا (رغم القرار 242 الصادر عن مجلس الأمـن في منظمـة الأمـم المتحـدة، والذي يؤكـد "عـدم القبـول باكتساب الأراضـي عـن طريـق الحـرب" والمطـالِبِ "بانسـحاب القـوى المسلحة الإسرائيلية من الأراضي المحتلة").

ولا تزال إسرائيل تفتت الأراضي الفلسطينية التي تسيطر على 96٪ منها بواسطة الاستيطان. وهنا أيضاً، قطع نتنيـاهو مراحـل جديـدة: مـن أجل إحكام قبضته على القـدس (رغـم قـرار الأمـم المتحـدة بالإجمـاع) يباشر بإقامة أشغال في القسم العربي من القدس في بئر حوما لبنـاء 2000 شقّة إضافية مخصصة لليهود. ويرفـض تنفيـذ وعـود إسـرائيل في أوسـلو بسحب جيوشها من بعض الأراضي المحتلة. فهو يخرق الإتفاقـات عمـداً رغم الاحتجاجات الدولية.

الثلاثاء 1997/3/18، انتقدت الولايات المتحـدة وفرنسـا وبريطانيـا بعنفٍ قرار إسرائيل بدء الأشغال لبناء المستوطنة الحادية عشرة في القدس الشرقية. ولا يزال في الجليل مخزنُ بارودٍ حقيقي: بين 120 ألـف مواطـن فلسطيني، يسكن 500 مستوطنٍ ممن يُغطون بالزهور مدفن المجـرم بـاروخ غولدشتاين الذين يعتبرونه بطلا، ويسيطر بينهم جوٌّ روح الحزب الوطني الديني القديم الذي يدّعي الجمع بين خط اليهودية القويم وبين القوميـة

العلمانيـة في الصهيونيـة السياسية، ممـا يعطي استيطانهم هنـاك شـرعية دينية.

وحتى عازر وايزمـان، رئيـس دولـة إسـرائيل، يتهـم نتنيـاهو بأنـه مسؤول عن تجميد محادثـات السـلام والعـزل المتصـاعد للدولـة العبريـة. ويقول عن نتنياهو: "استعملني هذا الرجل وخدعني مـرّات عديـدة. أمـا اليوم، فقد طفح الكيل" ("لوموند" 1998/7/2). مع ذلك يواصل نتنياهو سياسة التنظيف العرقي التي ينتهجها، مانعاً حصول أيـة محادثـات بشـأن الجولان السوري، كما بشأن القدس ولبنان. من هنا قول ثيو كلاين إن " شعار نتنياهو: **الأمـن أولاً**، منـاورة مجرمـة". ("لومونـد" 1998/5/2). وهذا بديهي: كيف نطالب بأمن الحدود، وحـدود كـل الجيران محتلـة، والقرارات الدولية تخرَق بصورة منتظمة ويُنقض التوقيع مع الفلسـطينيين على اتفاق أوسلو؟

عن المشرف على "الموسوعة اليهودية" البروفسور لايبوفيتز حصيلةٌ في كتابه **إسرائيل واليهودية** جاء فيها: "أرى فكرة اسرائيل الكبرى أمراً مرعباً"..."هَمُّ الأمـيركيين إبقـاء فيـالق مـن المرتزقـة الأمـيركيين في بـزّة الجيش الاسرائيلي، لاستعمالها كما يريـدون حـين يريـدون"..."إن قـوة القبضة اليهودية مستَمَدَّةٌ من القفـاز الفـولاذي الأمـيركي الـذي يغلّفهـا ومن الدولارات في بطانتها".

ردةُ الفعل الرافضةِ السياسةَ الصهيونِية المتسـتّرة بـالتقوى اليهوديـة وشمولية أنبيائها آخذةٌ بالرفض المتزايد عنفاً (بيار منديس فرانس ونـاحوم غولدمان رفضا غزو لبنـان)، واسـتنكارها عـمَّ نحـو مئـة مفكّـر يهـودي بينهم يانكيليفيتش، مينكوفسكي، رودنسون، بيار فيدال ناكيه، شـجبوا سياسـة أورشـليم بـ"اللجـوء المنتظـم الى القـوة الوحشـية، والسـعي الى سيطرة عسكرية على هذه المنطقة من العالم".

وخلصوا الى القول: "أمام هذا التحقير للعدالة والقيم التي الـتَزَمَت بها أجيال من اليهـود، نرفـض بقـوةٍ كـلَّ تضـامن مـع سياسـة اسـرائيل الحالية".

ο) تربية نازية جديدة

هـذه السياسـة في الحـرب والتوسـع الاسـتعماري المسـتمر، والتجاوزات والتدمير المادي، تشمل أيضاً (كما في كل استعمار) تطبيـع الإنسان بشعور من التفوق العرقي تمليه نظرية لاهوتية مزيفة، من منظـار صهيوني مرتكزٍ على ثلاثة مبادئَ تدمِّر إنسانية الإنسان:

1- رَفْضُ الآخر، بأنّ حـاجزاً مـن نـار يفصـل اليهـود عـن العـالم (كما كتب الحاخام كوهين).

2- اعتبار الآخر (كل "آخر") عـدواً بـالقوة (كـأن التـاريخ كلّـه سلسلةُ اضطهادٍ أبديٍّ للشعب اليهودي البريء).

3- إيمانٌ أن الدولة الصهيونية الاسرائيلية لا يمكن أن تنشأ إلاّ بمثل ما ورد في **كتاب الكره**، حـافزاً وحيـداً أمـام شبابها وجيشـها وشـعبها بكامله. فالمنطق العسكري المبنيُّ على كـره الآخـر واحتقـاره، هـدفٌ في ذاته، وسائر العالم (كما غولدهاغن يرى ألمانيـا، أو كمـا برنـار هـنري ليفي يرى فرنسـا وحضارتهـا) ليـس سـوى شـعب مـن القتلـة أو **ثقافـة البذاءة**.

عبادة الكره الأبـدي، سماهـا أحـد المؤرخـين الإسـرائيليين "عقـدة آمـاليكْ" (خـلال جلسـة مناقشـة الاصلاحـات في الكنيسـت يـوم 1952/1/7) إذ ارتفعت يافطة ضخمـة فـوق واجهـة المبنـى، جـاء فيهـا: "تذكّر ما فعله بك آماليكْ". ورمز آماليكْ في قصـة يشـوع: "مـا يجب إبادته" (وكان المتزمتون الأميركيون برّروا مطاردستهم الهنود الحمر بـأن هؤلاء "آماليكيون"). وفي السياق نفسه تنـدرج صرخـة الحقـد الشـهيرة من بيغن: "لم يقتل آباءكم ألمانيٌّ واحد. كـل ألمـاني نـازيٌّ. كـل ألمـاني قاتلٌ. أدِناور قاتل. وجميع المتعاونين معه قَتَلَة". بعد أربعـين سـنة، وسّـع غولدهـاغن هـذا الموضـوع في 500 صفحـة، فجعلـت منهـا الحركـة الصهيونية الكتاب الأكثر رواجاً، في حين صرّح المـؤرخ الرصـين يهـودا باور أن جامعته ترفض هذا الموضوع حتـى بحثـاً لأطروحـة دكتـوراه في الجامعة.

وفي تموز/يوليو 1981 جعل الكنيست من موضوع الإبادة عقيدةً وطنية، بقانون يحرِّم النقد تحت طائلة السجن سنةً كاملة (سابقة حصلت الـ"ليكرا" على مثلها في فرنسا بموجب قانون غيسو). وهذا الإجراء حصل بعد افتتاحيةٍ من بُواز إيفرون عنوانها "الإبادة، خطر على الأمّة" (1980)، ذكر فيها أنَّ إبادة اليهود إذا كانت أكبر المجازر في تاريخهم، فهي في التاريخ العام ليست أُولى المجازر ولا أكبَرها، وأن النازيين لم يجدّوا فقط في قتل اليهود وحدهم، بل السلافيين والغجر وحتى الألمان (الشيوعيين) ممن كانوا يعارضون النظام. وكان بُواز إفرون يريد كسر أسطورة الفرادة اليهودية بتفضيل اليهودي عن سائر الإنسانية، لأن هذا يقوده الى انعزاله "هكذا يتصرف الحكام في عالمٍ تسكنه أساطير وأشباح هم خلقوها".

هذا الهاجس بـ"ذاكرة" ملْؤُها الحقد، يتكرر يومياً في المدرسة والجيش والصحافة والسينما والتلفزيون. من ذلك قول الصحافي عزرائيل كارلباخ: "ستنشأ في العالم يوماً حركة سلام حقيقية تحقق السلام في أوروبا وتمحو ألمانيا **من وجه العالم**" ("معاريف" 1951/10/5)، كأن ثلاثة أرباع الألمان المولودين بعد سقوط هتلر مسؤولون عن جرائم النازيين، أو جان سبستيان باخ أو غوته أو كانط، أو كبار الألمان الآخرين كالشاعر هاين أو الفيزيائي آينشتاين، رموز الفكر الألماني. ولهذه الحملة الدعائية تأثير على الناس العاديين، حتى ولو كانوا من ضحايا النازيين (كالكثير من المقاومين) أو عليَّ (وأبرز كتبي عن فلسفة هيغل). على أنها، من جهة أخرى، تؤثّر في رجل محترم سممته هذه الحملة الدعائية المشؤومة فأعلن: "**لو كان لي لطلبتُ من الشعب الألماني قتلَ أمٍّ مقابل كل أم يهودية قُتِلَت، وأبٍ بأب وولدٍ بولد. وتطمئن نفسي حين أعرف أن ستة ملايين ألماني سيموتون مقابل ستة ملايين يهودي ماتوا. وإذا عجزنا عن ذلك، فلنقم، على الأقل، بعمل تاريخي يسبب لهم ألماً يوازي الدم المسفوك. فلنبصق في وجوههم**" (مائير دفورسيسْكي، في كلمته الى الهيئة المركزية في "ما باي" – 1951/12/13).

حتى ما جاء في سِفْر الأحبار (18،19): "**لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك، وأحبب قريبك كنفسك**"، فسِّر بطريقة مشوَّهةٍ اعتَبَرَتْ "أبناء شعبك" تعنيَ أن غير اليهودي ليس قريباً. من هنا كتب الحاخام أ. كوهين في كتابه عن **التلمود** (1983) أن "القريب في التلمود هو الاسرائيلي ولا يشمل الوثني". ويذكر الحاخام كوهين حدوداً من نارٍ "تميِّز اليهودي وتفصله عن الآخرين". وهو التفسير الوحيد المعتمَد رسمياً ويُدَرَّس لتلامذة المدارس وأفراد الجيش، وللناس في الشوارع بواسطة وسائل الإعلام. ومن الشواهد:

في الذكرى الخمسين لتأسيس اسرائيل، أصدرت الدولة (1998/5/14) عن وزارة التربية "كتاب اليوبيل" لإحياء ذكرى الحدث في كل مدارس البلاد. والغريب أن الكتاب (كما ذكرَت "هآرتز" الرصينة) لا يذكر إطلاقاً وجود الشعب الفلسطيني قبل نشوء اسرائيل ولا بعده، ولا يذكر مخطط التقسيم الذي خلق (عام 1947) دولتين في فلسطين: دولة يهودية وأخرى عربية. ويضيف الصحافي ريلي ساعار أن "الفصل المتعلق بجهود السلام يتطرق الى المعاهدات مع مصر والأردن، ويتجاهل اتفاق أوسلو وعملية السلام الحالية مع الفلسطينيين".

نموذج آخر: خلال تدريس سفر يشوع (مدرَج في المدارس الاسرائيلية من الصف الرابع حتى الثامن) وزع أستاذ في تل أبيب، اسمه تاماران، نصاً على ألف تلميذ جاء فيه: "تعرف المختارات التالية من سفر يشوع (20،6): صعد الشعب نحو المدينة (أريحا) واستولى عليها، وقتل كل من وجد فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ بدون أي تمييز". أجب عن السؤالين التاليين:

1- هل حسناً فعل يشوع والاسرائيليون في رأيك؟

2- لنفترض أن الجيش الاسرائيلي احتل قرية عربية خلال الحرب، هل يجب أن يفعل بسكانها ما فعله يشوع بسكان مدينة أريحا، أم لا؟

وحين نشر تامارِان عام 1972 النتيجة المخيفة لاستطلاع التلامذة (70٪ أجابوا: نعم) طرد من جامعة تل أبيب (القصة أوردها المبشر كلود رينو في كتابه: **لبَنان–فلسطين** 1987).

في 1995/2/15 نشرت "هآرتز" رأياً تربوياً يناهض تكييف التلامذة: "في دراسة حديثة، أظهر البروفسور بار تال من جامعة تل أبيب الى أي درجة تمَّ تحريك النظام التربوي الاسرائيلي لتبرير موقع اسرائيل في الصراع العربي الاسرائيلي، مشدِّداً على ضرورة تغيير طريقة ذِكْر العرب في الكتب المدرسية، وضرورة تغيير الحكم الذي يطلقه الاسرائيليون على أنفسهم. فالنصوص حول الهولوكوست والمجازر خلقت عقلية البلد المحاصر، وغذَّت الإيمان بأن اليهود متفوِّقون وأنهم دائماً على حق. وأحصى بار تال ذِكْر ذلك في 107 كتب تاريخ وقراءة بين الكتب التي وافقت عليها وزارة التربية. ففي كتب التاريخ (وخصوصاً تاريخ اليهود) لا أحد يتكلم على السلام إلاّ كـ"يوطوبيا" بعيدة، وترد فيها فكرة أن اليهود دوماً ضحايا. وفي أحد كتب القراءة نصٌّ عن "المستوطنات الصهيونية الأولى" لا يذكر وجود العرب في المنطقة إلاّ مرتين يسِمُهُم فيهما بأنهم نهّابون في أكثرهم، وقليلون منهم "إيجابيون" قبلوا ببيع أراضيهم لليهود. وفي افتتاح دورة الجمعية الإسرائيلية للبحوث التربوية، قال بار تال: "في الصراع العربي الاسرائيلي، لم نكن ضحايا بل معتدين. وإظهار العرب، (وخصوصا الفلسطينيين) بهذه الطريقة المنحازة والسلبية، يعني تجاهل آلام شعب يلقى مصيراً مرّاً نتحمل نحن جزءاً من مسؤوليته". وأشار الى أن **إسرائيل استعملت التاريخ ومواد التدريس الأخرى في خدمة العقيدة الصهيونية**. وعام 1979، أعلنت وزارة التربية أن تعليم مادة "الإبادة" إجباري لتلامذة الصفوف الثانوية. وتولت لجنةٌ وضعَ برنامج جديد يشدد على تغذية الالتزام العاطفي الوطني عند التلاميذ. وقال رئيس اللجنة: "يجب أن تكون الإبادة موضوع شعور تحفيزي، لا مجرد عنصر في إطار تاريخي أوسع، أو في سياق بحث علمي صرف".

وفي 1980/3/26 صوّت الكنيست على "دراسة **الإبادة** والبطولة وذكراهما"، وبوشر تدريس **الإبادة** في المدارس الابتدائية والثانوية، مادة تمثل 20٪ من برنامج التاريخ في امتحانات نهاية الدروس.

الخبير في تاريخ النازية لدى الجامعة العبرية في القدس، البروفسور زيمرمان نقل شهادة مخيفة عن عملية نزع الإنسانية عن الإنسان: "داخل كلٍّ منا وحشٌ سوف يكبر إذا واصلنا ادعاء إيجاد تبرير دائم لنا. ومنذ اليوم أرى ظاهرة تتنامى: في الشعب اليهودي شريحة كاملة لا أتردد في وسمِها نسخة عن النازيين الألمان. أنظروا الى أولاد المستوطنين اليهود في الجليل، إنهم يشبهون تماماً الشبان الهتلريين. فمنذ طفولتهم يتشرّبون فكرة أنَّ كلَّ عربي سيِّئ، وأنَّ كلَّ شخص غيرِ يهودي عدوُّنا، حتى باتوا يكبرون هذيانيين يعتبرون أنفسهم عرقاً متفوقاً، تماماً كالشبان الهتلريين".

هذا التكييف في المدرسة يتواصل في الجيش، بدءاً بمقدمةٍ للتوراة كتبها المرشد العام للجيش الحاخام غاد نافون. وعن "هآرتز" (1996/1/22) أنّ "أشرس نص في تسييس النصوص المقدسة بتزوير رسالتها العامة: **مقدمة التوراة التي تعطى حالياً للشباب المنخرطين في الجيش**. فطبعة 1958 كانت تحمل مقدمة الحاخام شلومو غورين على أن الكتاب دعوة الى البطولة والتضحية **ومصدر ثابت للوحي**، بينما في مقدمة الحاخام الأكبر غاد نافون للطبعة الجديدة معان متطرفة تجعل التوراة ملكاً خاصاً باليهود وحدهم، وبأن لهم حقاً حصرياً في أرض آبائهم برهاناً على حضور الشعب اليهودي الدائم في المنطقة. وبهذا تصبح التوراة جزءاً جوهرياً من **النظام العقائدي للصهيونية الدينية**.

وفي تلك المقدمة، اختفت كلمة "سلام" لتحل محلها كلمة "عدو"، وصار ابرهيم أبا الأمة اليهودية التي تقف وحدها في مواجهة بقية العالم (يظن الحاخام الأكبر أنه بهذا يقوّي روح الجنود). وينهي مقدمته بهذه الآية من سفر التثنية (4/20) "لأن الرب إلهكم سائر معكم، ويحارب أعداءكم وينصركم".

تتويجاً لهذه المقدمة العرقية المركزة، أضيف الى كتاب التوراة أطلسٌ يجد فيه الجندي خارطة لإسرائيل الكبرى تضم اليهودية والسامرة والأردن، وخارطة أخرى عنوانها **الأرض التي وهبها الرب لليهود** وتحتها شرح الآية المعروفة "أرضُكِ يا إسرائيل من الفرات الى النيل".

هذه الحالة الذهنية منتشرة في كل هرمية التراتبية العسكرية. فالحاخام الأكبر آفيدان (مرشدٌ للجيش برتبة كولونيل) نشر كتاباً بعنوان **نقاوة السلاح في ضوء الهالاكاح** جاء فيه: "في أثناء الحرب، أو في مطاردة مسلحة، أو في هجوم، عندما تجد قواتنا نفسها أمام مدنيين لسنا واثقين من أنهم لن يؤذونا، علينا بحسب الهالاكاح أن نقتلهم [...]. لا نثقَنَّ بعربيٍ قطٍ ولو بدا عليه التمدُّن ... في الحرب، عندما تبدأ جيوشنا هجوماً نهائياً، تسمح لها الهالاكاح بل تأمرها بقتل المدنيين، حتى الوادعين منهم". من هنا أن جنوداً إسرائيليين (كما قال الكولونيل برافير في 1990/6/15) بعد تكيُّفِهم بتعاليم الكره هذه، أخذوا يعتقدون بأن الانتقام للإبادة تبريرٌ لأي عمل من الأعمال المشينة".

ومن النماذج الصارخة، هذا الحوار الذي جرى في 1996/4/10، بين مراسل "كول هائير" وخمسة جنود من البطارية التي كانت مسؤولة عن قصف المدنيين في بلدة قانا اللبنانية. "لم يضطرب أحد منهم حين علموا بعد دقائق من رماياتهم أين سقطت القذائف. جمعهم آمر البطارية وهنّأهم على حسن التصرف وشجّعهم على المتابعة. لم يذكر أحدٌ خطأً في الرماية، فهُم ليسوا "فئراناً عرباً (تعبير يهودي لاحتقار العرب). وبعد، فالعرب ملايين.

- ألم تشعروا بأية أزمة ضمير؟
- لماذا؟ قمنا بواجبنا. أطعنا الأوامر. أصلاً، لا أحد يسألنا رأينا.
- ولو طلب منكم رأيكم؟
- لكنا أطلقنا مزيداً من القذائف وقتلنا مزيداً من العرب.
- و"نقاوة السلاح"؟ (كان الجيش الصهيوني يتشدّق بها).

- لا أفهم ماذا تقصد. نحـن المدفعيـين، لا وقـت لدينـا نضيّعـه في مناقشة هذه الترهات. ما يعلّموننا أياه: أن نتصرف كجنود محترفين".

وفي 1996/4/19 نقل مراسلا جريدة "دافار" انطباعات الكولونيـل روبي الذي كان، من أعلى التلة، يشرف علـى قصـف القـرى المجـاورة، ويشعر بنفسه "كأنه زوس علـى جبـل الأولمب، وهـو يـوزع النـار مـن حوله"!

على أن مجزرة قانا ليست خطأً بل جريمة بحق الإنسانية، أمرت بها أعلى القيـادات في دولـة اسـرائيل، ونفذّتهـا، بكـل فـرح، التراتبيـة العسكرية. من هنا قول آري شـافيت لـ"هـآرتز": "قتلنـا هـؤلاء النـاس بسبب التمييز الحقير بين أهمية حياتنا المقدسة وبعض ما نمنحه من أهمية لحياة الآخرين". (1996/5/21).

وعـن التـبرير الحاخـامي لمبـدأ الحـرب الشـاملة، نقلـت "هـآرتز" (1995/3/24) مناقشة اشـترك فيهـا حاخامـان (أحدهمـا آفينـار الشـديد التأثير) وأستاذٌ في جامعة بار إيلان اليهودية وقاضٍ، حول مقال الحاخام إلبا في **ما يقوله القانون الديني اليهودي عـن إقـدام اليهـود علـى قتـل مسالمين**. وأكد الحاخام آفينار أن بحث الكاتب موافقٌ تعليـمَ التـوراة، إذ يرى أن جرمـاً يُرتكَـب بحق يهـودي، أشـدُّ منـه إذا ارتُكـب بحـق غـير اليهودي".

- هل يذكر القانون الديني حالة يتناقض فيها مع قانون الدولة؟

- علـى القـانون الديـني أن يتفـوق علـى القـانون البشـري، وهــو يضفي شرعية على قانون الدولة **إذا وجده مطابقاً للتوراة**. أما إذا ظهـر تناقض بينهما فقانون التلمود هو الذي يسود.

- في النص توصية، في زمن الحرب، **بقتل الناس المحسوبين علـى العدو بمن فيهم النساء والأطفـال**، رغـم أنهـم لا يشـكلون أي تهديـد مباشر، خوفا من أن يتورطوا لاحقاً مع الآخرين.

- إنه مبدأ **الحرب الكاملة** يواجه شعباً بشعب آخر. في هذه الحالة، إذا أشفق يهودي على عدوه، يدفع اليهود الآخرون لاحقاً ثمن ذلك من حياتهم.

ويذكر المقال أنْ في أثناء جنازة هوس الذي قتله الفلسطينيون (وهو مساعد حاخام الجليل ليفنغر) وُضِع تابوته **قرب مدفن غولدشتاين** قبل ترتيل المزمور 94 **(الرب إله الانتقام)**. وعندما بادر صحافيٌّ من "جيروزَلم بوست" يسأل الحاخام جينسبورغ عن ذلك أجابه: **لعل ذلك يوقظ روح الانتقام عند اليهود.**

هذا التسميم يتواصل على مستوى وسائل الإعلام والتخيل الشعبي. ففي كانون الثاني/يناير 1983، بعد مجازر لبنان، أصدرت دولة اسرائيل مجموعة من ثلاثة طوابع "من أجل استذكار يشوع". خصص الأول لعبور الأردن. وصدر تعليقٌ حول هذا الإصدار في تل أبيب قال كاتبه سيجيسموند غورين: "هذا ما يذكر بـ"طريقة التحرُّك المباشر" كما طبقتها القوات الاسرائيلية المعاصرة، بين بين سواها، في سيناء عام 1956، وعلى ثلاث جبهات عام 1967، ولكنها معروفة منذ 3300 سنة، طبّقها أجدادُهم التوراتيون حين دار العبرانيون حول بلاد كنعان كي يهاجموها من الشرق". أما الطابع الثاني فخصِّص لذكرى احتلال أريحا، وذكّر غورين بإبادة مقدسة للسكان، لم يُعفَ فيها إلاّ عن راحاب العاهرة لأنها آوت المبعوثين السرِّيين". وأما الطابع الثالث فخصص ليشوع بن نون وهو يوقف الشمس كي يكمل معركته ضد خمسة ملوك كنعانيين "بينهم ملكا أورشليم والجليل". ويذكّر غورين بأنّ "الملوك الخمسة أُسروا، ثم أمر يشوع بقتلهم وتعليق جثثهم على خمس شجرات". ويخلص غورين الى أن "على اسرائيل اليوم أن تواجه عدواً لا يقل خطورة عن ملوك الكنعانيين في الماضي".

هكذا تتم صناعة أمثال إيغال آمير (قاتل رابين) وباروخ غولدشتاين (مرتكب بجزرة الجليل) وكلاهما قاتل بالحق الإلهي. وظهر مقالٌ مصوَّر بقلم سيجيسموند غورين "جورنال دو جنيف"

(1983/1/23) بعنوان لافت: "يشوع جد آرييل شارون". وهناك مثلان على هذا الاختراق في فرنسا:

نقلت "لوموند" (19/4/ 1997) أن مسؤولة التوثيق في ليسيه إدمون روستان تمكّنت بدعم من الـ"ليكرا" وجماعتها من أن تسحب من المكتبة نحو 50 كتاباً معتبرَةً **خطِرة بدعمها النزعة التعديلية، وبكرهها الأجانب، وبمدافعتها عن جرائم الحرب**. وبذلك استبعِد من المكتبة كلٌّ من: جوزف دو ميتر (توفي سنة 1821)، موريس بارس (توفي سنة 1923)، آلان بيرفيت (وزير العدل في عهد الجنرال ديغول)، جان فرنسوا دونيو (رئيس لجنة إصلاح محاكم الجنايات)، مارك فومارولي وجان فرنسوا روفيل (عُضوَا الأكاديمية الفرنسية)، المؤرخ أندره كاستلو، وجان تولار (مرجعٌ حجة في الدراسات النابوليونية). وعندها كتب جان فرنسوا ريفيل: "بات من الشائع الساخر اتهامُ كل شخص، يراد تلطيخ سمعته، بالنازية أو بالتعديلية". ("لوبوان"، 1997/10/28). وعلّق مدير منشورات "فايار" و"ستوك" كلود دوران قائلاً: "تُطلق أحكام على كتب وكتّاب لم يتكبد أحد عناء قراءتهم لأن نقضهم وإعدامهم أسرع من الدراسة والبحث المتعِبَين".

هذا يعود بنا الى الأجوبة التي أعطيت عن كتابي وعن محاكمتي. ولا أعيد طرح الهجوم الصحافي الذي أطلقه عليَّ صحافيون أهانوني و لم يقرأ أحد منهم كتابي، فلم يبرزوا ما ينقض نصي، بل اعتمدوا على موقف أناس استأجرتهم منظمة بيتار-تاغار التي أعلنت مسؤوليتها عن الاعتداء ببيان لوكالة فرانس برس: 6 أشخاص أصيبوا وتقدموا بشكوى، وصحافيان نقلا الى المستشفى.

وكتب إليّ وزير الداخلية رسالة أعلمني فيها بأنه باشر بملاحقات (بقيت كما يبدو بدون نتيجة) ضد منظمة بيتار التي ألقي القبض لاحقاً على اثنين من أعضائها في اعتداء آخر. ولكن يبدو، عندما يتعلق الأمر بي، أن أعضاءها يتمتعون بالحصانة، لأن رجال الشرطة الذين كانوا

حاضرين أمام قصر العدل، حين حصل الاعتداء عليّ، لم يتدخّلوا (بتعليمات أجهل مصدرها)، و لم تثمر أية ملاحقة عن أي إجراء.

كل ذلك لا يعدو كونه حوادث، ولكنها ذات دلالة. فالكتب استبعدت لأنها صُنِّفت، كما في سنة 1941، بحسب طريقة "أوتو" جديدة، ولأن أعمال العنف بقيت من دون عقاب، بسبب عودة الروح النازية من جديد.

مرةً أخرى، دافعنا عن إنسانية الإنسان قبل فوات الأوان.

وأقول باسم كل الذين ثاروا قبل انبلاج الفجر: في 1940/9/14 اعتُقِلت ورُحِّلت لمدة 3 سنوات.

مَن هو المذنب الحقيقي؟
هل مَن يرتكب الجرم؟
أم مَن يكشف النقاب عنه؟
أم مَن يريد خنق الاحتجاج فيمسي متواطئاً؟

منذ مثلتُ أمام المحكمة العليا، حصلَت حوادث سلَّطَت ضوءاً جديداً على تحاليلَ كان كتابي **الأساطير المؤسِّسة للسياسة الاسرائيلية** تناولها، وأوضحَت ما كنتُ قدّمتُهُ حينها من انتقادات. منها انتخابُ نتنياهو (أيار/مايو 1996) مَن وصَفَته ماري كلير منديس فرانس (أرملة رئيس وزرائنا) في "فرانس سوار" (1996/10/2) بـ"شخص فاشي لامسؤول".

وفي 1996/11/15 أصدرت محكمة إسرائيل العليا حكماً يشرِّع التعذيب.

ولم تتحرك الـ"ليكرا".

وفي 10/17/ 1996 دشنت الحكومة الاسرائيلية طريقاً في أرض عربية استولت عليها لخدمة المحتل، ببلاغ رسمي جاء فيه أن "الطريق 60 هي في تصرف الشعب الاسرائيلي وقوات الأمن فقط".

وفي 1996/12/18 عبّر آلان فينكِلرو عن استنكاره في "لوموند" عبر مقال عنوانهُ: إسرائيل الكارثة"، جاء فيه: "بانتصار نتنياهو، خرجت لغة التمييز العنصري من إطار السريّة. وبصراحة: ثمة اليوم فاشيون يهود. لذا نقول بوجود كارثة روحية. فرعاة البقر المسلّحون هؤلاء، لن يسمحوا بأيِّ تحوّل في السيادة الحقيقية على شرق الأردن... كم مؤلم ألاّ يستطيع الانسان الخروج من ذاته العنصرية، ليضع نفسه مكان

الفلسطينيين. والتضامن مع اسرائيل لن يتم إلاّ بقبول أن تعود الكلمة الأخيرة الى رعاة البقر المسلحين".

ومرةً أخرى، سكتت الـ"ليكرا" ولم تقاوم.

في حزيران/يونيو 1997، نشرت ابنة موشى دايان (نائبة في الكنيست) رسالة بخط أبيها كشفت أنْ لم يتم اجتياح الجولان السوري وضمّه لأسباب أمنية، بل بتحديات وتعديات تلبية لمستوطنين إسرائيليين كانوا يطمعون بالأراضي السورية.

واحتج الرأي العام العالمي، بمن فيهم مجاهدون يهود استاؤوا من سياسة الوحشية هذه، بينهم القانوني الاسرائيلي كلود كلاين: "على المجتمع الاسرائيلي أن يقلع عن بناء نفسه متمحورا حول الحرب". ("لوموند" 1997/7/14).

أيضاً وأيضاً، سكتت الـ"ليكرا" عما كشفته رسالة موشي دايان من أكاذيب "الحرب من أجل البقاء"، وهي كانت حجة حرب الأيام الستة.

ومن مقال في "يديعوت أحرونوت" (10/4/ 1996) نكتشف أنَّ الملياردير الأميركي إيرفينغ موسكوفيتش "عرّابُ نتنياهو وممولّ حملته الانتخابية". وعن جريدة إسرائيلية أخرى أنه "أكبر مموِّل لمستوطنات اليهودية والسامرة، اكتسب شهرة أسطورية في الأوساط اليهودية اليمينية لفعاليته في الحصول على بيوت العرب، بتوظيفه في السنوات العشر الأخيرة عبر شركة "آتِرتْ كوهانيم" عشرات ملايين الدولارات (وفقاً لتقديرات موثوقة) على هذا النوع من النشاط في اليهودية والسامرة وفي الحي العربي من القدس القديمة.

وقامت مؤسستان للدفاع عن حقوق الإنسان ("بتْ سِلِمْ" و"ها موكِد") بفضح سياسة "طرد الفلسطينيين بصمت من أورشليم"، ووصفتاها بسياسة "التنظيف العرقي"."

الصحافي أمْنيون كابليوك عبَّر عما سماه "هذا القرف" في "لوموند ديبلوماتيك" (عدد أيار/مايو 1997)، بقوله: "الإرهاب! ليس في فم رئيس الليكود إلاّ هذه الكلمة. فهو يرى أن الشبان الفلسطينيين الذين في مظاهراتهم يرمون الحجارة، إنما يقومون بـ"أعمال إرهابية". فكيف وُلِد هذا الإرهاب؟ من يغذيه؟" ويكشف في مقاله (نقلاً عن "يديعوت أحرونوت" في 3/4/ 1997) عن "استفتاء تم بعد اعتداء 21 آذار/مارس، جاءت نتيجته أن 55٪ ما زالوا يدعمون اتفاقات أوسلو. وفي استفتاء آخر، أعلنت أكثرية مطلقة من الاسرائيليين اليهود (51,3٪) تأييدها إنشاء دولة فلسطينية".

الكاتب الاسرائيلي الكبير إزهار سْميلانسكي (حائز على جائزة اسرائيل) كتب عن هذا الاستيطان فاضحاً تحديات نتنياهو التي تغذي هذا الإرهاب، فقال: "عملية بئر حومة هي أيضاً عمل إرهابي مموّه بقانون. وإلاّ فماذا نسمّي عملاً يسرق الأرض التي يعيش عليها أهلها"؟ ("يديعوت أحرونوت" 6/4/ 1997).

وفي 1997/8/13 صدر مقالٌ في "لوموند" بتوقيع جاك ديروجي (الاسم المستعار لجاكوب وايزمان) والمؤرخيْن دانيال ليندنبلاغ وبيار فيدال ناكيه، أوضحوا فيه رأي اليهود في فرنسا: "إنهم يتكلمون باسمهم. تماماً كما فعل حاييم موزيكانت، الصوت السياسي ذي الصفة التمثيلية الرسمية، يدعمه سالمون مالكا، بنشره مقالاً في المجلة اليهودية البلجيكية "نظرات" (Regards) عدد 1997/5/6 جاء فيه: "بالنسبة الى أورشليم، يرى أكثر يهود فرنسا أن للإسرائيليين الحقَّ ببناء مستوطنة جديدة في بئر حومة". ونرى في هذا التأكيد خطر تشكيل تحدٍ ليهود فرنسا، نظراً للرهان الذي ينتج عنه (سلم أو حرب في الشرق الأدنى). وقد يعني هذا التأكيد فعلاً أن الرأي اليهودي الفرنسي دفن عمليةِ السلام التي كانت قائمة علىٍ مبادلة الأرض بالسلام. فمشاعر 650 ألفاً يهودي في فرنسا مختلفة حتماً، ولكن من ينقلها؟

الخبير في الرأي العام اليهودي، تيو كلاين الرئيس السابق لـ"الكريف"، يرى وجوب التمييز بين مجموعة يهود فرنسا (نحو 650 ألف) وبين الأقلية المنظّمة (بين 60 و100 ألف شخص مرتبطين نوعاً بالجمعيات التي تؤلف الـ"كريف"). وهو يرى أن أكثرية من المجموعة الأولى تأمل في متابعة عملية السلام. وحتى بين المجاهدين المنظّمين، قلة فاعلة فقط تعارض اتفاقات أوسلو. وإذا كان الآخرون لا يجرؤون على التعبير، فلأنهم برأيه مكبّلون بـ"شرعية" تقاليدهم دعم الحكومة الاسرائيلية دعماً مطلقاً. وهي نزعة شرعية يتلاعب بها الصهيونيون المتطرفون أكثر فأكثر، وخصوصاً جماعة الليكود في فرنسا".

وعن كلاين (في "لوموند" 1996/11/28) أن "هذا الشر ينتشر برعاية تلاميذ الفاشية الحاخامية المسلحين"، كما قال بعدما أدان "حرب الفتح في دولة يهودية جديدة ذات جوهر إلهي السلطة"، وبعدما ذكر "قتلة الحق الإلهي" قبل باروخ غولدشتاين وإيغال آمير. ثمّ خلص الى القول: "لا، لا قرش "لمخطط"بيبي" على طريقة شارون. لن ندفع قرشاً واحداً من أجل "إسرائيل الكبرى"، هذا الوهم المستحيل الذي يعرّض للخطر عملية السلام والديمقراطية".

وكانت ليا رابين على التلفزيون الفرنسي (في15/10/1997) عرضت كيف اغتال الأصوليون زوجها الرئيس رابين.

وفي "لوموند ديبلوماتيك" (تشرين الأول/أوكتوبر 1997) كتبت ابنة الجنرال بيليد، تحت عنوان: "بيبي، ماذا فعلت؟" تذكرُ بأن ابنتها قُتلت في الهجوم الفلسطيني يوم 1997/9/4 وقالت: "أعتبر حكومته، بطريقة غير مباشرة، مسؤولة عن موت ابنتي، لأن سياسته تحدٍّ مستمر للشعب الفلسطيني".

وهنا، أيضاً وأيضاً، سكتت الـ"ليكرا".

في 1998/5/12 نشرت "لوموند" نداءً من ستين شخصية عنوانُهُ: "نداء الى يهودِ الانتشار والى أصدقاء إسرائيل، من أجل إنقاذ السلام"، يدين سياسة الحكومة الاسرائيلية القائمة على الاحتقار والكذب

والاستفزاز، والمؤديةَ الى عزلـةٍ متزايدة لإسرائيل عن المسرح العالمي، والمهددةَ مستقبلَ البلاد تهديداً خطيراً... فإسرائيل لا تستطيع أن تدير ظهرها للعالم الخارجي الى الأبد، ولا يمكن أي حكومة أن تواصل إيذاء الفلسطينيين بالاحتلال العسكري، وتخنقهم اقتصادياً في الوقت نفسه... لن يستطيع المشروع الصهيوني أن يحافظ على شرعيته إلاّ إذا انخرط بثبات في طريق الاعتراف المتبادل وقسمة الأرض بين شعبين: إسرائيلي وفلسطيني". وبين الموقعين على النداء حائزون على جوائز نوبل (فرنسوا جاكوب، بول بيرغ، إدمون فيشر، فردريك سانغي، ريتا ليفي مونتابيني، كلود سيمون) وأعضاء من المعهد العالي (هنري كارتان وألكس كان وأفري شانترمن)، ومن كوليج دو فرانس، ومن الوسط الأكاديمي (جاك ديريدا، بيار نورا، بيار فيدال ناكيه) وفنانون (بيتر بروك ويهودي منوحيم).

ولم تسمع الـ"ليكرا" النداء. وظلت صامتة.

وفي المجلة الأسبوعية "ماريانّ" (15-1998/6/22) أعلن روني براومان (الرئيس السابق لمنظمة "أطباء بلا حدود") استغرابه من سكوت **ليكرا** المتكرر، في مقال بعنوان "هل لنا الحق بانتقاد إسرائيل"، في معرض نقده كتاب دانيالّ سّالناف "ملاحظات على دفاتر الطريق حول فلسطين المحتلة"، خالصاً الى أن الكاتبة تلقي نظرة مهمة على الحياة في فلسطين، وهي حقيقة طمستها الأساطير الاسرائيلية المؤسِّسَة.

هؤلاء الذين - مثل السيدة منديس فرانس، والبروفسور لايبوفيتز، وآلان فنكلرو، وإزهار سميلانسكي، وبيار فيدالٍ ناكيه، والسيدة بيليد، والسيدة رابينَ وكثيرين كثيرين ممن ذكرتُ أيضاً - قالوا كلاماً أقسى من كلامي في شأن السياسة الاسرائيلية، هل يمكن اعتبارهم مشهِّرين لاساميِّين، وهي التهمة الموجَّهة إليّ؟

هنا أيضاً لم تسمع الـ"ليكرا" نداءهم. وسكتَت!

انتقادي السياسةَ الاسرائيلية والعقيدةَ الصهيونية التي تُلهمها، أثارت غضب الصهيونيين (الذين يريدون فرض الاعتقاد بهوية واحدة

لليهودية والصهيونيـة). أرادوا تحويـل الديـن وإيمـان الأنبيـاء الابراهيمـي الرائع، الى أداة يبررون بها سياستهم المنبثقة كلياً من القومية والاستعمار الأوروبي الذي لا علاقة له بالإيمان اليهودي. فكانت النتيجة أن استبدل إله إسرائيل بدولة إسرائيل، كمـا العبرانيون، في غيـاب موسى، عبـدوا العجل الذهب بدلاً من الرب.

تأسس النظام الاسرائيلي منذ 50 سنة على هذه النقيضة: السلطة الإلهية (التيوقراطية) أو الديمقراطية. وأثبت البروفسور باروخ كيمرلنغ في مقال ("هآرتز" 1996/12/27) أن نظام إسرائيل السياسي "ليس ديمقراطياً ولا يهودياً"، وأن الإسرائيليين المتنوّرين يتحدثون، بعد مؤرخيهـم، عمـا بعد الصهيونية، مدركين التناقض الداخلي في النظـام. وهـذا، تمامـاً، مـا أدافـع عنـه في كتـابي **الأسـاطير المؤسِّسـة للسياسـة الاسـرائيلية** الـذي أستهله بـ"**هذا الكتاب هو قصة هرطقة!**"

اليوم، أكـثر بكثـير مـن وقـت المحاكمـة الأولى، صـارت الأمـور أوضح. فهل يمكن الـ"**ليكرا**" (الـتي تهـاجم كتـابي مـع أنـه، كمـا يـدل عنوانه، ينتقد فقط "السياسة الاسرائيلية" ومنطـق أسسـها العقائديـة) أن تقـول لي إذا التحذيـراتُ الـتي أطلقتهـا حـول أخطـار الحـرب الـتي قـد تفجّرها تلك السياسة (أكثر منها يوم كتبتُ الكتاب بعـد قـراءة **صدمـة الحضـارات** لصموئيـل هـانتنغتون) تنفيهـا أو تؤكدهـا سياسـة نتنيـاهو الاستيطانية، وخرقه اتفاق أوسلو الذي التزمت به دولته، وسائر أعمالـه المطابِقةِ منطق عقيدة مؤسس الصهيونية تيودور هرتزل وهـي تجعـل منـه سابقاً لهانتنغتون؟

توضيـح الأمـور ووضعهـا في نصابهـا الزمـني ضروريـان كـي لا يهبط مستوى المناقشة ولا نضيّع رهانها التاريخي في الجدل حول "حـوار الثقافات" أو "كتاب الكـره"، أي لا البحـث النقـدي في المـاضي (وهـو شأن المؤرخين) بل التحضير المشترك والأخوي لمستقبل السلام.

هذه المحاكمة، وأقول ذلك بدون عداء للذين أثاروهـا، لا يمكـن أن تغض النظر عن هذا الرهان الحيوي: **الحرب أو السلام في العالم**.

أنا أتحدّى أي شخص يستطيع أن يجد في كتابي تعبيراً واحداً تكون فيه كلمة **يهودي** مستعملة في معنى تحقيري.

بل على العكس، وكما كتب المدير السابق في الأمانة العامة للأمم المتحدة بول برتو (Paul Berthoud)، عبر مقال في "تريبون دو جنيف": "واضحٌ اليوم انحراف الصهيونية الى الأصولية، أي مطالبتها بأرض الحق الإلهي على كامل فلسطين كما في سنة 1947"... "إن المزج بين اللاصهيونية واللاسامية، تغذيه إسرائيل وتشجعه عمداً منذ خمسين سنة، وهكذا يفعل يهود الانتشار، مما أدى الى تعميم التنازل عن فضح فساد المشروع الصهيوني خوفاً من الاتهام باللاّسامية"... "وكلّما بقي الانتشار اليهودي، بشكل ثابت، متضامناً مع دولة إسرائيل التي تتابع سياسة السيطرة وإلغاء الأمة الفلسطينية، كلّما كان هدفاً للانتقادات الموجَّهة الى هذه السياسة. واتهام هذه الانتقادات باللاّسامية هو تصرّف غير شريف في دعم قضيةٍ (مَحْقُ أُمَّة) هي آخر ما على الشعب اليهودي أن يضمنها، لأنها أخلاقياً تستحق الإدانة، تماماً كما يستحقها محْق دولة إسرائيل".

لذلك دافعت عن نفسي ضدّ الاتهام المزدوج: التشهير بأشخاص أو مجموعات بسبب انتمائهم العرقيٍ أو الدينيٍ، والتقليل من شأن جرائم هتلر. والتهمتان استوجبتا مني فضحاً جذرياً لمساوئ الصهيونية، بسبب انحرافات إسرائيلية أكثر إثارة للخوف، وصمتت الـ"**ليكرا**" أمام جرائم جديدة مثل التمييز العنصري وتشريع التعذيب والاستيطان الجاري والاستفزازات المتزايدة.

وليس ذلك نابعاً من ذهنية التمييز العنصري أو العرقي (وإلاّ تناقض ذلك مع فكر حياتي وعملي في خدمة حوار الثقافات والحضارات)، بل من هدفي أن أتخطى ما يعيقُ بلوغَ علاقات سلميةٍ (في الشرق الأدنى وفي العالم) من حواجز تصنعها السياسة الاسرائيلية وأعوانها، وأن أتابع جهودنا مع إخواننا اليهود وكل أصدقاء السلام، على طريقٍ رسمه الجنرال ديغول (في 1967/11/27) وما زال صالحاً حتى

اليوم بشكل مذهل، إذ قال: "لم يسمع أحدٌ صوت فرنسا. في ستة أيام من المعارك هاجمت إسرائيل أهدافاً كانت تريد بلوغها. وها هي، في الأراضي التي احتلّتها، تنظّم احتلالاً لا يمكن أن يستمر بلا طغيان وقمع وطرد، وتظهر فيها ضدها **مقاومة** تصفها بدورها على أنها **إرهاب**. إن لم تمزق الأمم المتحدة شرعتها بنفسها، يجب أن يقوم نظامٌ يعتمد إخلاء الأراضي واعترافاً متبادلاً بالدول من كِلا الدولتين المتنازعتين، وأن يوضع للقدس نظام دولي".

إن السياسة الاسرائيلية التي تسيطر عليها أكثر فأكثر "الفاشية الحاخامية" (كما يسمّيها دوروجي) تعارض هذا الحل الحكيم الوحيد. والشاهد، الجريمة التي ارتكبت بحق الإنسانية في قانا: انتقاماً لقتلِ مقاومٍ جندياً إسرائيلياً من جيش الاحتلال، صدر الأمر بقصف أكثر من مئة مدني وقتلهم، تماماً كما فعل قديماً الماريشال فون كيتل إذ طلب إعدام 100 شيوعي مقابل كل جندي ألماني قتلته المقاومة.

خلال محاكمتي أعطاني الأب بيار هذه النصيحة: "يجب أن تبدأ بتحديد الصهيونية. بعدها يشيح أخصامك عن اتهامك باللاساميّة".

سادتي القضاة، إن ما ينتظره منكم البعض هو أن تكفلوا بقرار عدلي، صديقي الدائم وأخي الأب بيار، ضد أية محاكمة بلا قانون تجريها له وسائل الإعلام، وأن تخرسوا سياسة إسرائيل الحربية، وتشجعوا ميليشياويي منظمة بيتار الذين هاجموا الصحافيين وأرسلوا اثنين منهم الى المستشفى في أثناء لفظ الحكم الأول.

وهنا أسألكم: **من هو المذنب؟ أَمَن يرتكب الجرم أم مَن يفضحه؟ أَمَن يفتش عن الحقيقة أم من يسعى الى طعنها؟**

إن ما يغذي اللاساميّة، ليس فضح جرائم سياسيةٍ بل ارتكابها. لذا يصح ما قاله الأب لولونغ (في أثناء المحاكمة سنة 1982): "إن صراعنا ضد الصهيونية جزءٌ لا يتجزأ من صراعنا ضد اللاساميّة".

وبعد إثباتِ أن قانون غايسو لا ينطبق إطلاقاً على حالتي، أعود الى ما سبق نشر هذا القانون عندما برهنّا سنة 1982 (مع الأب لولونغ

والقسّ ماتيو، بموافقة جاك فوفيه، مدير "لوموند" آنذاك) أن اجتياح لبنان كان مطابقاً منطقَ السياسة الصهيونية التي تتبعها الحكومة الاسرائيلية.

وثبّتت محكمةُ النقض الحكمَ الصادر عن محكمة البداية ومحكمة الاستئناف، باعتبار الأمر "ليس استفزازاً عرقياً، بل إباحة التعرُّض بالنقدِ لسياسة دولةٍ، وللعقيدة التي تلهمها... ولذلك ترفض طلبات الـ"**ليكرا**" وتغرّم بالمصاريف".

والذي أطلبه اليوم، تثبيت حُكْم محكمة النقض، لأن توسّع السياسة الاسرائيلية يعيدنا الى المشكلة السابقة.

وهي هذه رسالة صديقي يهودي مينوحيم في هذا الموضوع. وإذ لم تجر العادة بالحضور الشخصي للشهادة في محكمة الاستئناف، طلب مني أن أسلّمَكم نص رسالته كما كتبها هو نفسه بالفرنسية.

الفهرس

الفصل الثالث: السياسة الإسرائيلية

عويدات للنشر للطباعة 1999/1020

143

ROGER GARAUDY

LE PROCÈS DU SIONISME ISRAÉLIEN

Texte Arabe

Traduit par

Rania Bou Nassif & Pierre Richa

Revisé par

Henri Zoghaib

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth - Liban